القرآن

معجزة كل العصور

مدخل إلى قراءة رسالة النور

بقلم
الدكتور / توحيد الزهيرى



الناشر
مكتبة الدعـوة
بالازهـر

القرآن

معجزة كل العصــور

مدخل إلى قراءة رسالة النور

بقلم
الدكتور / توحيد الزهيرى

الناشر
مكتبة الدعــوة
بالازهــر

فاتحة الكتاب

لاتهدف هذه الدراسة الى تقديم تفسير للقرآن الكريم فإنها ليست أكثر من مقدمة لذلك التفسير المنشود أو بالأحرى هى محاولة للتعرف على نص القرآن وتطمح الى أن تكون بمثابة مدخل لقراءة القرآن المجيد أتمنى على الله أن تعين الإنسان المنصت على معرفة ما هو القرآن وتساعده على فهم النص المعجز وتذوق بعض أسرار جماله الباهر الذى لا نظير له.

إنها جولة عجلى فى أعماق بحر القرآن الكريم قمت بها ممسكاً بالمصباح الذى أوقده عشقى القديم فأضاء لى بعض الجواهر المودعة بين دفتى المصحف الشريف فلعلى أكون قد وفقت فى حث أخوتى القراء على النهل من فيض هذا الكنز العظيم الذى لا تفنى عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد والله هو الموفق وهو العزيز الحكيم.

﴿قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين . إن هو إلاّ ذكر للعالمين ولتعلمن نبأه بعد حين﴾ سورة ص ٨٦ - ٨٨.

توحيد الزهيرى

السـؤال الأول

ما هو سر القرآن ؟ !

ويستنبئونك أحق هو ؟

قل إى وربى إنه لحق !!

(يونس ٥٣)

مكة قبل الهجرة وموسم الحج على الأبواب ......

فى مثل هذا الوقت من كل عام تتهيأ المدينة «المقدسة» لإستقبال ضيوفها الكرام .... وفود الحجيج الذين سيصعدون إليها آتين من كل صوب ليطُوفوا بالبيت العتيق وينحرون الذبائح قرباناً للآلهة التى تحيط بالكعبة تماثيلها كما تلتف الوصيفات والفتيات حول العروس الجميلة فى ليلة عرسها.

وفى مثل هذا الوقت من كل عام يستعد كبار التجار لعقد الصفقات العظيمة وينتظر أصحاب الحانات وصناع الخمور والاصنام وبائعات «الهوى» أيام الرواج حيث تمتلأ الحانات وتجرى الخمور كالأنهار وتطول ليالى اللهو ويشرب الجميع من كئوس اللذة المترعة حتى الثمالة.

فى مثل هذا الوقت من كل عام ينتظر «الشعراء» الباحثون عن الشهرة والمال على أحر من الجمر يشتهون أن يلقوا بقصائدهم فى أسماع الوفود التى جاءت من كل ارجاء العرب لعل اشعارهم تلقى قبولاً فتحملها القوافل الى كل مكان ينطق فيه الإنسان بهذه اللغة الرائعة التى يقدسها أهلها ويعدونها بحق أعظم وأنفس ما يملكون .

كان حرياً بأهل مكة أن يبتهجوا بقدوم الموسم وألاّ يعكر صفو سرورهم شئ لولا «هذا» الرجل الذى يدعى أن الله قد بعثه رسولاً إليهم وأنه يكلمه بكلام عجيب لم تسمع العرب مثله من قبل فحارت قلوبهم وطاشت أفئدتهم فى وصفه فقالوا إنه شعر ووصموه بالسحر أو الكهانة ولم يستقروا على شئ فى شأنه.

لقد استطاع أن يجذب إليه يوماً بعد يوم الأنصار فصار المؤمنون يزيدون ولا ينقصون رغم التعذيب والقسوة والإضطهاد وتفاقم امره فلم يعد الإيمان يقتصر على الحثالة من الأرقاء والفقراء الذين رأوا فيه منقذاً رحيماً بل تعدى الأمر إلى السادة والأشراف والأثرياء من أمثال ابى بكر وعثمان بن عفان بل هاهو حمزة بن عبد المطلب ابن سيد قريش يعلن إسلامه وسرت أنباء «رجل قريش» وقرآنه العجيب فى القبائل سريان النار فى الهشيم توشك أن تأكل كل شئ فى بنيان ذلك المجتمع القديم.

غداً يأتى العرب من كل مكان يتساءلون عن هذا الرجل الذى سفه أحلامكم وعاب آلهتكم وأوشك أن يجعلكم أضحوكة بين القبائل بعد أن كنتم سادة العرب تستمدون مهابتكم وعزكم من مهابة وعزة البيت المحرم الذى بناه إبراهيم وإسماعيل أبو العرب.

«يامعشر قريش ماذا ستقولون لهم وكيف تصدونهم عنه قبل أن يطويهم فى سلطانه الذى لا يقاوم ؟!»

كان هذا هو السؤال الذى إجتمع من أجل الإجابة عليه صناديد قريش فى ناديهم على مقربة من الكعبة بينما كان «محمداً» صلى الله عليه وسلم يجلس وحده لدى البيت الحرام مطرقاً خاشعاً فبدا لأعينهم التى تختلس النظر إليه من حين لآخر كما لو كان مستغرقا فى تأمل عميق أوربما ينصت الى الوحى الذى يزعمه فى أعماق قلبه.

كانوا يشعرون فى قرارة أنفسهم أن ثمة زلزالاً رهيباً تتجمع إرهاصاته فى باطن الأحداث المتسارعة التى تفاجئهم كل يوم بمزعج جديد.

لم يعد العنف يجدى ولا الإهانة ولا الإستخفاف.إنهم مضطرون الآن إلى الذهاب الى طريق وسط بينهم وبينه . عليهم رغماً عنهم أن يعقدوا صفقة لعل وعسى.

كان «عتبة بن ربيعة» يجلس بينهم يطيل النظر بحثاً عن الإتفاق المأمول بين الطرفان المتصارعان صامتا ينقل عينيه بين وجوه سادة قريش التى علتها الكآبة وبين الجالس وحده لدى البيت المحرم ذاهلاً عن الدنيا وما فيها غير عابئ بسادة قومه الذين تأكل النار قلوبهم المضطربة.

وارتسمت على وجه عتبة إبتسامة صامته وشت بأنه قد أهتدى الى طريق فقال(١).

---

(١) القصة التالية هى توفيق بين روايتين الأولى ذكرها الإمام البغوى فى تفسيره عن جابر بن عبد الله الأنصارى والثانية ذكرها محمد بن إسحاق فى السيرة النبوية عن محمد بن كعب القرظى

«يا معشر قريش» : فانتبهوا .. «ألا اقوم الى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمور لعله أن يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا» !!

نفس الخواطر التى كانت تجول على إستحياء فى قلوبهم التى أرهقها الكبرياء فقالوا فى صوت واحد وقد تنفسوا الصعداء إذ وجدوا واحدا يقوم بتلك المهمة العسرة على نفوسهم «بلى يا ابا الوليد»

وأحس أنه قد ورط نفسه وبدا التردد على وجهه فشجعوه حتى لا يتراجع بأصوات مطمئنه.

«أنت يا أبا الوليد قم إليه فكلمه» ولم يكن بد فقام إليه - اقترب منه فى هدوء حتى جلس إليه فقال

«ياابن أخى»

«إنك منا حيث علمت من السلطة فى العشيرة والمكان فى النسب . وإنك قد اتيت قومك بأمر عظيم . فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم . فأسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك أن تقبل منها بعضها»

لم تحمل كلماته الرصينة نبرة الإستهزاء أو صوت التحدى وقد تشفع بصلة الرحم ورابطة الدم فقال له صلى الله عليه وسلم.

«قل يا ابا الوليد أسمع»

«قال : يا ابن اخى إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أغنى قريش رجلاً واحدا . وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً من دونك . وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا (١) تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الأطباء

= وذلك نقلاً عن تفسير ابن كثير وأعتقد أنها بالنسياق الذى هدانى الله إليه تحمل فى بنائها المتماسك ما يؤيد صدقها.

(١) يعنى شيطاناً من الجن .

وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فإنه ربما غلب التابع (١) على الرجل حتى يداوى منه وإن كان إنما بك من الباءة (٢) فاختر أى نساء قريش شئت فلنزوجك عشراً»

لقد جمع كل الأهداف الدنيوية التى يمكن أن تحرك الإنسان وتدفعه للخروج على قومه بالإدعاءات العريضة كما أعطاه طريق الإعتذار بذكر المرض ومس الشيطان وأظهر كرماً باذخاً وتوهم بعد كل الذى ذكر أن يسمع الكلمة المرجوة ويرضى «محمد» بهذه الصفقة وفيرة الربح.

لكن الرسول صلى الله عليه وسلم ظل صامتا ولاح على وجهه المشرق الحزين شبح إبتسامة ساخرة كانت بمثابة طعنة قاتلة فى قلب «عتبة» بددت الأمل فى المصالحة المرتقبة وأشعلت جذوة الغضب فى قلبه الذى ملأه الغيظ والحنق فقال وقد علا صوته لأول مرة منذ أن جلس

«أنت خير أم عبد الله أبوك» ؟!

وسكت الرسول ولم يرد.

فقال «أنت خير أم عبد المطلب جدك؟!

واصل السكوت

«فقال» إن كانوا هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التى عبت وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى يُسمع قولك»

«إنا والله ما راينا سخلة (٣) قط أشأم على قومك منك . فرقت جماعتنا وشتت أمرنا وعبت ديننا وفضحتنا فى العرب حتى لقد طار فيهم أن فى قريش

---

(١) قرين الأنسان من الجن الذى يلازمه على الدوام ويريد أن يؤذيه ويضله ويرهقه.

(٢) شدة الشهوة الجنسية والرغبة العارمة فى الجماع إن عتبة كان حكيما فى حدود الحكمة المتاحة لبشر إذ يذكر أن شهوة الجماع التى تجتاح الإنسان ولا تجد تنفيسا تكون سببا فى حدوث الاضطربات العقلية ودافعا قويا لنظم الشعر.

(٣) مولود غنم سواء أكان ضأنا أو ماعز .

ساحراً وأن فى قريش كاهناً»

«والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا الى بعض بالسيوف حتى تتفانى» . كانت الكلمات تخرج كالحمم المشتعلة من بركان الغضب الذى يغلى فى قلبه ولم يجد مايقوله أكثر فسكت وهو ينتفض.

قال الرسول صلى الله عليه وسلم فى هدوء

«أفرغت يا ابا الوليد»

قال فى غيظ «نعم»

قال «أو تسمع منى» ؟!

قال فى ضجر «أفعل»

قال ﴿بسم الله الرحمن الرحيم حم ، تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآنا عربياً لقوم يعلمون ، بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون﴾ (١)

ومضى «محمد» صلى الله عليه وسلم يتلو بصوت مشرق حزين ينساب كالماء الصافى يتدفق من بحر قلبه الخاشع وعتبة ينصت مشدوها لا يملك فكاكا من أسر هذا البيان المدهش الذى ينفذ كالنور الى القلوب فيبدد ظلامها ويأخذ بالافئدة فتذعن له بالتفكر وتطرب له الأذان من نظمة المتفرد فلما وصل الى قوله تعالى ﴿فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾ (٢)

لم يملك «عتبة» نفسه فاندفع يهوى بيده على فم «محمد» صلى الله عليه وسلم يريد إسكاته وهو يصرخ رغماً عنه مستغيثاً «ناشدتك الرحم ياابن العم» إذ كان يشعر أن الصاعقة التى يخبر عنها توشك أن تخترق سمعه وهى تدمر كل شئ

---

(١) سورة فصلت (١-٤)

(٢) سورة فصلت (١٣)

فـى طريقهـا إلا أن «محمـداً» صلـى الله عليه وسلم أزاح برفق يده وواصل التلاوة دون أن يلتفت إليه فألقى «عتبة» يديه خلف ظهره معتمداً عليهما ورفع رأسه نحو الوجه الذى يزداد تألقه مع التلاوة حتى وصل الى موضع السجدة عند قوله تعالى ﴿ومـن آياتـه الليـل والنهـار والشـمس والقمـر لا تسـجدوا للشـمس ولا القمـر وإسـجدوا لله الـذى خلقهـن إن كنتـم إياه تعبدون ، فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون﴾ (١)

فتوقف ثم سجد فى خشوع فأطال السجود و«عتبة» ينظر إليه يحدث نفسه «محـال أن يكـون هـذا السـاجد كاذبـا» ثـم رفـع وجهـه وقـد علتـه مهابـة وضـاءة لا يستطاع إقتحامها فغض عتبة بصره وطأطأ راسه فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم.

«قد سمعت يا ابا الوليد ما سمعت فأنت وذاك»

لقد تركه أمام «القرآن» وحده وجهاً لوجه وطلب منه أن يحكم بنفسه.

قـام عتبـة متثـاقلا لايـدرى إلى أيـن يذهـب . لقـد إقتنـع إن هـذا الكـلام لا يشبه شيئاً من كلام البشر ومحال أن يكون مشرق الوجه الذى سجد فى خشوع كاذبا ولا يعرف كيف سيواجه قومه ولا ماذا سيقول لهم . قد خاب سعيه والكارثة التى كان يعمل جاهداً على تحاشيها قد صارت حتماً مقضياً .

ود أن يفر الى بيته ليخلو بنفسه ولكن لا مفر من العودة إلى قومه فتقدم اليهم ثقيل الخطى قد بدا على وجهه الاثر الذى أحدثه القرآن فى قلبه فقال بعضهم وهم ينظرون إليه «نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به»

جلس واجما شارد الفكر يتحاشى النظر الى عيونهم المتفحصة.

قالوا «ما وراءك يا ابا الوليد ؟!

لامفر لابد من إعلان الحقيقة فقال فى تؤدة وهو يتحسس الكلمات بعقله قبل

---

(١) فصلت (٣٧ - ٣٨)

أن ينطق بها لسانه «وراني أني سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط»

يا معشر قريش أطيعوني وأجعلوها لي

خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه

«اعتزلوه»

«فو الله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ»

«فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم»

«وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم»

«وكنتم أسعد الناس به»

نزلت عليهم كلماته صفعات مفزعة فقالوا وهم يتفجرون غيظا «سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه»

قال «هذا رأيى فيه فاصنعوا ما بدا لكم . وتفرقوا وهم يتحيرون !!

لم يكن «عتبة بن ربيعة» حالة خاصة تعبر عن شخصه الفرد وإنما كان مجرد مثل بليغ يفصح عن التأثير الفريد الذى مارسه القرآن المجيد فى قلوب مستمعيه بإقتدار لا نظير له فها هو «الوليد بن المغيرة» المخزومى أغنى أغنياء قريش وأحد السادة مسموعى الكلمة يدلف فى الخفاء الى بيت أبى بكر أبن ابى قحافة (الذى سيسمى فيما بعد بالصديق رضى الله عنه) يريد أن يستمع الى الكلام العجيب الذى ينطق به أبن ابى كبشة (كنية للنبى صلى الله عليه وسلم) فلما أنصت إليه لم يتما لك نفسه من الدهشة والإعجاب وافلتت من لسانه كلمات الثناء (١) «ياعجباً لما يقول ابن أبى كبشة فو الله ما هو بشعر ولا بسحر ولا بهذى من الجنون» وتناثرت الأنباء بين سادة قريش فأقضت مضاجعهم» لئن صبأ الوليد لتصبو قريش فى إثره وقاد «عمرو بن هشام» المعروف باسم «أبى جهل» حملة نفسية للضغط على «الوليد بن المغيرة» ليسب محمداً ويعلن كراهته له وإنكاره

(١) تفسير سورة المدثر لابن كثير.

للكلام الذى يزعم أنه يأتيه من الله فاضطر الرجل وقد أثاروا كبرياءه أن يقول «أنه سحر» وقد اشارت سورة المدثر الى هذه القصة(١)

أما عمر بن الخطاب فقد خرج من بيته غاضباً عازما على قتل محمد ليخلص قريش والعرب من فتنته فقابل فى الطريق من أخبره أن شقيقته قد دخلت فى الدين الجديد وأن عليه أن يحكم أهل بيته قبل أن يفكر فى قتل «الرجل» فجن جنونه واندفع إلى بيت أخته لا يلوى على شئ فلما أحسوا باقترابه إختبأ زوجها والرجل الذى يعلمهما «القرآن» فلما دخل على أخته لمح الصحيفة التى كانت تقرأ فيها وهى تحاول إخفاءها فطلبها منها فرفضت لأنه نجس لا يصح أن يلمس صحيفة «مقدسة» فاصابه الذهول فلطمها حتى سال الدم منها إلا أنها أصرت على موقفها فاضطر وقد استبدت به الرغبة فى معرفة ما فى تلك الصحيفة ... اضطر أن يغتسل فلما تناولها وقرأ مطلع السورة العشرين ﴿طه ، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى الرحمن على العرش إستوى﴾ (٢)

فطوى الصحيفة وهو يطوى الصفحة المظلمة من عمره ويستقبل فى نور القرآن فجر حياته الجديدة التى نال بها مكانة لا تزول عنها شمس التاريخ الانسانى اذ صار واحداً من عظماء البشر والمثل الاعلى للحاكم العادل.

والاعرابى البسيط الذى استمع الى مقطع من سورة «الحجر» فلما وصل القارئ الى قوله تعالى :﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين﴾ (٣)

خر ساجدا فلما قام ساله من رآه «أأسلمت؟»

قال «لا ولكن أسجد لبلاغة هذا الكلام»

والسؤال هل تأثير «القرآن» ينحصر فى «العرب» الذين يتكلمون لغته

---

(١) سورة المدثر الآيات (١١ - ٣٠) (٢) سورة طه (١ - ٥)

(٣) سورة الحجر الأية ٩٤

ويستطيعون تذوق جمالها ومعرفة اسرارها ؟

من المدهش والمثير للتأمل العميق اننا نستطيع ان نلمس التأثير القرآني في قلوب الاعاجم الذين لا ينطقون العربية بالسليقة وبالطبع فهم أقل قدرة على ادراك لطائف لغة الضاد حتى وإن تعلموها .

صحيح ان قراءة القرآن في لغته الاصلية هي الوسيلة المثلى لادراك بلاغته وفهم معانيه وتذوق جماله كما اقر كل المستشرقين الذين اتيح لهم ان يقرأوا القرآن في العربية بعد ان قرأوه مترجما إذ اعترف الجميع أن الترجمة مهما بلغت دقتها وجمالها واخلاصها لابد أن تذهب بحلاوة القرآن الذى يعد ثروة لغوية بل كنز لا يفنى يستطيع قارئه أن يستخرج مالا يحصى من المعانى العميقة بالتدبر في الفاظه وعباراته بل حتى في حروفه مثل حروف الجر أو العطف وهو مالا تستطيع أى ترجمه أن تؤديه يقول جاك س ريسلر وهو باحث فرنسي وأستاذ بالمعهد الإسلامى بباريس (١)

«لاتستطيع الترجمات ان تنقل ثروته اللغوية (يقصد القرآن) إذ يذبل جمال اللغة في الترجمات كأنها زهرة قطفت من جذورها ولذلك يجب أن يقرأ القرآن فى نصه الأصلى» ويقول سير هاملتون الكسندرجب إمام المستشرقين الانجليز فى العصر الحديث «والواقع ان القرآن لا يمكن ترجمته بشكل أساسى كما هى الحال بالنسبة للشعر الرفيع ليس بالامكان التعبير عن مكنون القرآن باللغة العادية ولا يمكن أن يعبر عن صوره وامثاله لأن كل عطف أو مجاز أو براعة لغوية يجب أن تدرس طويلاً قبل أن ينبثق المعنى للقارئ والقرآن كذلك له جمال ونظم بديع لا يمكن تحديدهما لانهما يعدان بسحرهما أفكار الشخص الذى يصغى الى القرآن لتلقى تعاليمه ولاشك أن تأويل (يعنى ترجمة) كلمات القرآن إلى لغة اخرى لا

---

(١) كتاب الحضارة العربية ص ٣٠ ـ ٣١ نقلا عن الملحق الذى أعده الدكتور عماد الدين خليل تمت عنوان «قالوا عن القرآن» والذى أضيف الى كتاب إشارات الاعجاز فى مظان الإيجاز للاستاذ سعيد النورسى

يمكن إلا أن يشوهها ويحول الذهب النقى الى فخار (١)

ورغم ذلك يبقى للقرآن تأثيره النافذ الى قلوب المستمعين المنصتين اليه مهما كانت انتماءاتهم التاريخية أو الجغرافية أو الثقافية سوآء قرأوه فى لغته الاصلية او مترجما لأن سر القرآن اعمق من ان يكون مجرد براعة لغوية أو بلاغة اسلوبية لأنه ينطوى على سر الذى تكلم به (سبحانه وتعالى)

تقول السيدة برجت هونى (٢) وهى انجليزية دارسة للفلسفة اسلمت واسمت نفسها عائشة (تيمنا بزوج النبى وابنة الصديق)

«لن استطيع مهما حاولت أن أصف الأثر الذى تركه القرآن فى قلبى فلم أكد أنتهى من قراءة السورة الثالثة من القرآن (سورة آل عمران) حتى وجدتنى ساجدة لخالق هذا الكون فكانت هذه أول صلاة لى فى الإسلام»

هاهنا نجد صورة أخرى من «الإنسان» تذكرنا بالبدوى الأعرابى الذى خر ساجدا عند سماع مقطع من سورة الحجر.

ويقول وليم بيرشل بيكارد (٣) وهو كاتب انجليزى «إبتعت نسخة من ترجمة سافرى الفرنسية لمعانى القرآن وهى أغلى ما أملك فلقيت من مطالعتها أعظم متعة وإبتهجت بها كثيرا حتى غدوت وكأن شعاع الحقيقة الخالد قد أشرق علىّ بنوره المبارك»

وتقول ديبورا بوتر (٤) وهى صحفية أمريكية اعلنت إسلامها عام ١٩٨٠.

«عندما أكملت القرآن الكريم غمرنى شعور بأن هذا هو الحق الذى يشتمل على الإجابات الشافية حول مسائل الخلق وغيرها وإنه يقدم لنا الأحداث بطريقة

(١) «الأتجاهات الحديثة فى الإسلام» نقلاً عن المصدر السابق وكل النقول فىهذا الباب من نفس المصدر.

(٢) كتاب رجال ونساء اسلموا ـ الجزء الأول ص ٦٠/٥٩

(٣) رجال ونساء أسلموا الجزء الثانى ص ٨٦

(٤) رجال ونساء أسلموا الجزء الثامن ص ١٠٠

منطقية نجدها متناقضة مع بعضها فى غيره من الكتب الدينية . أما القرآن فيتحدث عنها فى نسق رائع وأسلوب قاطع لا يدع مجالا للشك فى أن هذه هى الحقيقة وأن هذا الكلام هو من عند الله لا محالة»

ويقول روم لاندو وهو نحات وناقد فنى انجليزى (١) «إن بين آيات قصار السور ترابطاً باهراً له تأثيره الوجدانى برغم أنه ليس ثمة أى نظام وزنى وفى الحق أن سماع السور تتلى فى الأصل العربى كثيراً ما يخلف فى نفس المرء تأثيرا بليغا»

والشهادات أكثر من أن تحصى والمقام أضيق من أن نضيف إليه المزيد لذلك سنكتفى باللمحة الذكية التى ادركتها لورا فيشيا فاغليرى الباحثة الإيطالية (٢) بلطف آلهى حين قالت».

الأثر الذى يحدثه القرآن فى النفس البشرية إنما يتم من غير أى عون عرضى أو إضافى (خارجى) بل من خلال سموه الذاتى»

إن هذه العبارة القصيرة والعميقة لابد أن تذكرنا بقول القرآن ﴿الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان﴾ (٣)

فقد ربط بموجب السياق بين تعليم القرآن وخلق الإنسان فأشار بحكمة هذا النظام إلى أن القرآن قد توجه منذ صدوره الأزلى عن الله ليخاطب الإنسان فهو إذن خطاب الرحمن إلى الإنسان فى أى زمان أو أى مكان!!

(١) الإسلام والعرب ص ٢٥٦ ـ ٢٩٧

(٢) دفاع عن الإسلام ص ٥٦ ـ ٥٧

(٣) سورة الحمن ١ ـ ٤

السؤال الثانى

ما معنى بلاغة القرآن ؟

قل أوحى إلىّ أنهُ استمع نفر من الجن ؛ فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً.

يهدى إلى الرشد ......

فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً .

(سورة الجن ١ - ٢)

من المؤكد أن ثمة سؤال لابد أن يتردد فى ذهن المتشكك «لئن كان للقرآن كل هذا التأثير الذى تدعيه فلماذا يظل كثير من الناس على كفرهم به رغم إبلاغهم بل إنهم قد حاربوا رسوله حتى الموت ؟!

والإجابة ببساطة شديدة هى أن الكافر لا يرضى أن يجلس من القرآن جلسة المستمع المنصت بل إنه يرفض «الرسالة» الموجهة إليه قبل أن يفتحها ويقرأ ما فيها ضاربا بها عرض الحائط صادراً فى هذا عن «الكبرياء» الذين يزين لنفسه إعلان التمرد على «الله» والنفور من التدخل فى شئون حياته من جانب أى أحد حتى لو كان «الخالق» نفسه لأنه بكل صراحة يريد أن يعيش كما يهوى بلا أوامر أو نواهى دون مزعجات أو منغصات.

هذا «الهوى» هو أساس الكفر فإنه لا يقوم على إعمال الفكر أو التأمل العميق فى الكون المشهود ولا ينتج من التدبر الطويل فى «رسالة الله» بل هو ثمرة «التكبر» التى ينفخ فيها الشيطان حتى «تكبر» فى قلب الإنسان فتملأه إلى أن ينفجر ـ بعد الموت ـ أشلاءً متناثرة فى جهنم ، سجن المتكبرين وبئس المصير !!

لقد جئ بالإنسان إلى الدنيا من أجل «الإمتحان» ولذلك فلا بد أن يتعارض مقتضى «الإيمان» مع الشهوات الجامحة والمطامع الفادحة ولما كان أكثر الناس غير مستعدين للتضحية بشهواتهم ومطامعهم لذلك يتركون «الإيمان» رغم تحذير العقل ويحاول أدعياء الحكمة منهم أن يصبغوا هذا الإختيار بلون من التعالم الزائف لعلهم يبررون أمام عقولهم نمط حياتهم الكاذبة التى يشعرون فى قرارة أنفسهم أنها ستنتهى فى الهاوية .

يقول القرآن الكريم واصفا حال الكافرين معه :﴿كتاب فصلت آياته قرآناً عربيا لقوم يعلمون * بشيرا ونذير فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون * وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينكم حجاب فاعمل إننا عاملون﴾ (١)

---

(١) سورة فصلت ٣ ـ ٥

والإعراض نفور باطنى فى القلب يدفع إلى الإبتعاد . فهم بنص الآيات لم يسمعوا ولم ينصتوا وأحسوا بسبب نفورهم أن قلوبهم محاطة بغطاء سميك يحول بينهم وبين الإستماع والإنصات بل فى أذانهم ثقل يجعل الكلمات مبهمة غائمة المعنى كما لو كانت اصواتاً منعدمة الدلالة ويشعرون أن ثمة حجاب غير مرئى كأنه جدار يفصلهم عن «الرسول» الذى يبسط إليهم يده مقدماً رحمة الله والنتيجة إعمل يا محمد ما بدا لك فإننا سنمضى فى حياتنا كما يحلو لنا فقد حالت الاقدار دون اللقاء أو الأتفاق .

ويقول :﴿وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلاّ كانوا عنه معرضين﴾ (١) وإذا اضطرتهم الظروف إلى الاستماع فإنهم ينصرفون بقلوبهم عنه وينشغلون بأمور دنياهم بل بأتفه الأشياء مستهنين به مستخفين بشأنه ﴿ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلاّ استمعوه وهم يلعبون . لاهية قلوبهم﴾ (٢) .

ويوصى بعضهم بعضاً بالإبتعاد عن المجالس التى يتلى فيها القرآن وإن ساقتهم الأحداث للإستماع فعليهم أن يشوشوا بالكلام الفارغ والثرثرة بل الصفيق والصفير حتى لا يصل إلى سمعهم شئ منه لكيلا يغلبهم بسلطانه ويخضعهم لسحره الذى لا يقاوم :﴿وقال الذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه

---

(١)سورة الشعراء ٥. وتسمية الوحى بالذكر ووصفه بأنه «محدث» يعنى مجدد إشارة أكثر من واضحة الى أننا ـ نحن البشر ـ قد إستمعنا إلى القرآن كلام الله من قبل عندما كنا فى قبضة الغيب قبل أن ننزل إلى الدنيا بالولادة وتتغطى قلوبنا بأجسادنا ولذلك يصح أن نصف الرسول «صلى الله عليه وسلم» بأنه «مذكر» كما قال فى سورة الغاشية «فذكر إنما أنت مذكر» والذكر هو الخلاص من النسيان يعنى استعادة العلم بالشئ بعد نسيانه فنحن فى الدنيا نتذكر ما سبق أن عرفناه ونجدد العهد الذى سبق أن قطعناه.

(٢) سورة الأنبياء ٢ ـ ٣

لعلكم تغلبون﴾ (١)

فهم يحاولون أن يغلبوه بالتشويش عليه لأنهم لو أنصتوا إليه فسيغلبهم لا محالة !!!

فإن أصر القارئ على مواصلة التلاوة فيجب حينئذ أن يرغموه على السكوت بالضرب العنيف حتى أن أدى إلى القتل.

﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا﴾ (٢) ولذلك اشتكى الرسول «صلى الله عليه وسلم» إلى ربه إبتعاد قومه عن القرآن وانصرافهم عن الإنصات إليه بل فرارهم منه كما لو كان أسداً جائعاً يشتهى إلتهامهم.

﴿وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا﴾ (٣)

﴿فما لهم عن التذكرة معرضين * كأنهم حمر مستنفرة * فرت من قسورة﴾ (٤)

لم يطلب القرآن من الإنسان إلا أن يستمع وينصت فحينئذ سيصل إلى الحقيقة وسيعرف بمفرده ودون أن يحتاج إلى مساعدة أحد أن هذا الكلام هو حديث الله رب العالمين ﴿وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون﴾ (٥)

ودعاهم إلى تدبره يعنى إطالة نظر الفكر فيه وقراءته بتمعن مرة بعد أخرى

---

(١) سورة فصلت الآية ٢٦ .

(٢) سورة الحج الآية ٧٢ .

(٣) سورة الفرقان الآية ٣٠ .

(٤) سورة المدثر ٤٩ - ٥١ . تأمل فى قوله «التذكرة» لنتأكد أننا قدسبق لنا أن استمعنا القرآن قبل أن نولد فى هذا المكان .

(٥) سورة الأعراف الآية ٨.

جينة وذهاباً . ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب﴾ (١)

وعاب عليهم إهمالهم القرآن وإنصرافهم عنه مما أدى إلى بقاء قلوبهم مغلقة دون الحياة الحقيقية.

﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ (٢)

وقد أثبتت ملايين التجارب الحية عبر ما يزيد عن ألف وأربعمائة عام منذ نزول القرآن هذه المرة إلى الدنيا أنه ما من مرة يمسك فيها الإنسان بالقرآن راغباً فى الإنصات إليه باحثاً عن الحقيقة الا وهزه القرآن بأسلوبه ومحتواه أو بشكله ومضمونه هزاً عنيفاً محضراً أمامه «الحقيقة» وجها لوجه . بهذا نطق العرب والعجم قديماً وحديثاً.

يقول (٣) ر . ل . بلا شير الفرنسى أستاذ الأدب العربى ومترجم القرآن إلى الفرنسية فى ثلاثة أجزاء «إن القرآن ليس معجزة بمحتواه وتعاليمه فقط إنه أيضاً ويمكنه أن يكون قبل أى شئ آخر تحفة أدبية رائعة تسمو على جميع ما اقرته الإنسانية وبجلته من الروائع» - إننا نلمح هنا نفس كلمات الوليد ابن المغيرة«إنه يعلو ولا يعلى عليه».

ويقول سير توماس ارنولد (٤) إن القرآن قد صُنِعَ فى مثل هذا الأسلوب

(١) سورة ص الآية ٢٩ . والبركة هى دوام الحياة «والمبارك» هو الخالد الذى لا يقطع حياته موت ومعنى بركة القرآن هو أنه يفيض دوماً بالحياة على المنصت إليه المتمعن فيه فهو «الروح» الذى يهب القلب الحياة إذ يفيض عليه بالعلم والمعرفة ويقوده فى طريق الصعود إلى واهب الحياة الحى الذى لا يموت . وأنظر إلى قوله «وليتذكر» وتذكر!!

(٢) سورة محمد الآية ٢٤.

(٣) ترجمة القرآن الكريم ص ١٠٢ - ١٠٣ - نقلا عن المخلق الذى أضافه الدكتور عماد الدين خليل إلى كتاب إشارات الاعجاز فى مظان الإيجاز للأستاذ سعيد النورس - والنقول التى سترد فى هذا الباب من نفس المصدر ما لم يذكر غير هذا .

(٤) الدعوة إلى الإسلام بحث فى تاريخ نشر العقيدة الإسلامية ص ١٦٢ .

البليغ الجميل حتى أن المسيحين لم يسعهم إلا قراءته والإعجاب به» ويقول الدكتور جورج حنا وهو مسيحى لبنانى (١) : إنه لابد من الإقرار بأن القرآن فضلا عن كونه كتاب دين وتشريع فهو أيضاً كتاب لغة عربية فصحى وللغة القرآن الفضل الكبير فى إزدهار اللغة العربية ولطالما يعود إليه أئمة اللغة فى بلاغة الكلمة وبيانها سواء كان هؤلاء الأئمة مسلمين أم مسيحين.

وإذا كان المسلمون يعتبرون أن صوابية لغة القرآن هى نتيجة محتومة لكون القرآن منزلاً ولا يحتمل التخطئة فالمسيحيون يعترفون أيضا بهذه الصوابية بقطع النظر عن كونه منزلاً أو موضوعا ويرجعون إليه للإستشهاد بلغته الصحيحة كلما استعصى عليهم أمر من أمور اللغة».

ويقول الدكتور ماردريل المستشرق الفرنسى الذى كلفته الحكومة الفرنسية بترجمة بعض سور القرآن الكريم (٢) «أما اسلوب القرآن فإنه أسلوب الخالق عز وجل ، ذلك أن الأسلوب الذى ينطوى عليه كنه الكائن الذى صدر عنه هذا الكتاب لا يكون إلاَّ إلهياً والحق والواقع أن أكثر الكتاب ارتياباً وشكاً قد خضعوا لتأثيره وسحره»

ويقول ايتين دينيه المصور الفرنسى الذى أشهر إسلامه عام ١٩٢٧ وتسمى باسم ناصر الدين : (٣) إن كان سحر أسلوب القرآن وجمال معانيه يحدث مثل هذا التأثير فى نفوس علماء لايمتون إلى العرب ولا إلى الإسلام بصلة فماذا ترى أن يكون من قوة الحماسة التى تستهوى عرب الحجاز وهم الذين نزلت الآيات بلغتهم الجميلة ؟! لقد كانوا لا يسمعون القرآن إلا وتتملك نفوسهم انفعالات هائلة مباغته فيظلون فى مكانهم وكأنهم قد سمروا فيه».

---

(١) كتاب " قصة الإنسان " ص ٧٩ - ٨٠ .

(٢) كتاب «البحث عن الله» ص ١١٢ - ١١٣ تأليف الليدى ايفلى كوبولد نبيلة انجليزية اعتنقت الإسلام وحجت الى بيت الله وكتبت مذكراتها التى ترجمت الى العربية بعنوان «البحث عن الله»

(٣) كتاب «محمد رسول الله» ص ١١٩ .

أهذه الآيات الخارقة تأتى من محمد «صلى الله عليه وسلم» ذلك الأمى الذى لم ينل حظاً من التعليم؟!

كلا إن هذا القرآن لمستحيل أن يصدر عن «محمد» ولا مناص من الاعتراف بأن الله العلى القدير هو الذى أملى تلك الآيات البينات

وأخيراً وليس آخراً يقول الدكتور سيدنى فيشر أستاذ التاريخ فى جامعة أوهايو الامريكية(١) «إن القرآن كلام الله يشد فؤاد المسلم وتزداد روعته حين يتلى عليه بصوت مسموع ولكنه لا يفهم هذه الروعة كما لم يفهمها كل الذين سبقوه إلى الإعتراف ببلاغة القرآن إعتماداً على أثره البليغ فى قلوب قارئيه ومستمعيه ثم يقفون عند تقرير هذه البلاغة بشهادة السماع»

أعتقد أنه يجدر بنا الآن أن نشحذ الذهن ونمعن النظر محاولين أن نفهم معنى بلاغة القرآن فنتساءل أولاً ما هى البلاغة ؟! بم يوصف الكلام بأنه بليغ أو بعبارة أخرى ما هو سر البلاغة ؟!

سنقدم هنا وجهة نظر جديدة أعتقد أنها ستمكننا من الحصول على فهم أعمق وتعريف أشمل للبلاغة ومن ثم يمكن أن تعد أساساً موضوعياً لنقد الأعمال الأدبية ثم سنقوم بتطبيقها على النص القرآنى لبيان أنه قد بلغ المثل الأعلى فى البلاغة بتحليل النص وليس بمجرد الإدعاء الدينى وأن بلاغته طبقاً لهذا الأساس الموضوعى تتجاوز القدرة البشرية.

بالإفادة من منهج علماء الطب النفسى يمكننا أن نشرح «النفس» (٢) أو

---

(١) الشرق الأوسط فى العصر الإسلامى نقلاً عن العقاد فى كتابه «مايقال عن الإسلام» ص٥٤

(٢) جدير بنا أن نوضح معنى الكلمات التى تستخدم فى وصف الشخصية الإنسانية لأن الخلط بينها شائع حتى على ألسنة وكلام ممن يوصفوا بالعلماء والحكماء ويلقى الكلام مسموعاً ومقروءاً جزافا كثير المرادفات غامض المعنى لانعدام التحديد الدقيق. فيؤدى إلى سوء الفهم وإلى الأخطاء الفادحة . نقول باختصار يفرضه المقام النفس: إسم للذات الإنسانية يشير إلى حقيقتها الكلية الجامعة لكل مستويات كينونتها وهى حقيقة أزلية أبدية دائمة لأنها كلمة من كلمات الله كانت فى قبضة الغيب قبل نفخ «الروح» الجنينى المستودع فى الرحم وتبقى بعد الموت إذ =

الشخصية الإنسانية والتى يمكن أن نطلق عليها إسم «القلب» باعتبار أنقسام الكون كله إلى ظاهر وباطن أو غيب وشهادة فيكون ذلك القلب (= النفس) هو الجانب الخفى المناظر للجسم الذى هو القالب المشهود أو هذا الجانب المحسوس من الإنسان أقول يمكن أن نقسم النفس (=القلب) إلى ثلاثة دوائر أو مجالات متميزة عن بعضها ولكنها متصلة ومتمازجة ومتداخلة لنها تنتمى فى الأصل إلى كائن واحد وهذه الدوائر أو المجالات هى :

= يغادرها الروح فتعود مرة أخرى الى الغيب وهى التى تعانى الموت «كل نفس ذائقة الموت» فالموت تجربة تذوقها النفس إذ تعانى انفصال الروح عنها لتغيب تاركة مجال الشهود. الروح : هو القوة التى تحضر النفس فتدفعه للخروج من الغيب الى الشهادة وهو مذكر وليس مؤنثاً كلفظ النفس وهو واحد فى كل الكائنات لأنه قوة الحياة التى صدرت عن الواحد الحى القيوم المحى المميت واهب الحياة الخالق البارئ المصور الذى لا إله إلا هو ... الله سبحانه وتعالى فالروح هو القوة التى يفيض بها الله على الأنفس (= الكلمات) فتخرج من الظلمات وقد اشارت آية البقرة فى سورتها الى أن «الروح» أى سر الحياة واحد فى كل الكائنات إذ أن «الروح» الذى انطلق من البقرة المذبوحة قد أحيى الرجل المقتول فأخبرهم باسم قاتله والروح هو سر الحياة الذى يربط النفس بالجسد أو ينزل النفس فى الجسد وعند الموت يخرج الروح فتزول قوة الاتصال ويتفكك الإنسان فتعود النفس إلى كتاب الله باعتبارها كلمة من كلماته ويؤول الجسد إلى مجرد «بدن» يتحلل بمرور الوقت عائدا إلى تراب كما بدأ .«والجسد» هو كتلة الطين التى إرتدتها النفس بقوة الروح (= سر الحياة) تظهر فى الأرض على صورة آدم أبو البشر وعندما يفارق الروح بالموت فإنه يسمى «البدن» قال تعالى لفرعون بعد أن غرق «اليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية» والمفهوم أن البدن هنا هو الجثة التى طافت على الماء والتى بقيت من جسد فرعون بعد أن مات .

فإن تشوه الجسد عند الوت كأن قطعت رأسه أو بتر عضو من أعضائه أو تناثرت أشلاؤه فانه لا يسمى «بدنا» ولكن يصبح «سوءة» «ياويلتى أعجزت أن اكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى» ولما كانت النفس عند نزولها للإبتلاء فى الجسد بقوة الروح لاتفقد إتصالها تماما بالغيب بل تظل على صلة به فيصبح لها حينئذ وجهان أو جانبان الأول ظاهر محسوس وهو الصورة الآدمية المرئية بالعين وهو مايسمى «الجسم» والثانى هو الجانب أو الوجه الخفى الباطن وهو الذى يشار إليه «بالقلب» وذلك الجانب هو الذى يتلقى الوحى ويتصل بالملائكة ويصل إلى «الله» وهو موضع نظر الله قائماً بين يديه يقلبه بين أصابعه كيفما شاءت ارادته سبحانه وتعالى.

(١) الوجدان ويشير إليه القرآن بإسم الصدر وهو آلة الشعور الإنسانى ومستودع العواطف والمشاعر والأنفعلات مثل الحب والكراهية واللذة والألم والأمل واليأس والفرح والحزن والأسف والشفقه والحسد والخوف والأمن والقلق والإطمئنان والغضب ،...... والوجدان يدرك الجانب الخفى أو الوجه الباطن من الأشياء بمعنى أنه لا يعرف الأشياء كما هى بإعتبار ظواهرها البادية للحواس وخصائصها المفهومة بالعقل ولكنه (= الوجدان) يتعرف على الكائنات بمدلولها الإنسانى الشخصى يعنى بما تؤديه من دور فى تجربة الإنسان الذاتية فهو ينظر إليها باعتبارها شريكة له فى الحياة تقاسمه التجارب وتشهد عليه فهو يحب هذه الشجرة التى شهدت لقاءه الأول مع حبيبته ويكره هذا الوجه البغيض الذى شاهده يوم ماتت أمه ويمقت تلك الكلاب التى نبحته ليلة عاد إلى قريته بعد غياب طويل عندما هطل المطر فسقط فى الأوحال هكذا يعرف الوجدان الأشياء ويتعرف على الكائنات بدلالة التجربة الإنسانية أو هو ينظر إليها باعتبارها رموز او أشارات لحقائق أكبر منها وفى هذا النظر يشترك مع العقيدة الدينية التى تنظر الى الأشياء باعتبارها آيات تدل على الخالق وإشارات لصفاته ووسائل لإرادته فالعقيدة تنظر الى الكائنات باعتبارها رموز للحقيقة الكاملة ألا وهى «الله» جلَّ فى علاه.

و«الفن» هو النشاط الإنسانى الذى يخاطب الوجدان فالفنان هو الذى يتعامل مع هذه الدائرة (= المجال) من النفس الإنسانية ويتضح مما تقدم أن العقيدة الدينية تشارك الفن فى نظرته إلى الاشياء المشهودة أى باعتبارها رموز أو اشارات لحقائق كلية وهذا هو أصل الإرتباط العميق بين الدين والفن فى تاريخ الإنسان فليس من قبيل العبث ولا من محض المصادفة أن نشأ الفن فى أحضان المعابد فكانت دور العباة هى المكان الجدير بروائع العمارة وبدائع التصوير والشعر والموسيقى والغناء.

ولما كان الأدب هو شكل من أشكال الفن بمعنى أنه الفن الذى يتعامل مع

الكلمات فيتخذ من «الألفاظ» وسيلة لأخراج عمله أو وعاءً يسكن فيه روحه ليظهر فلا بد أن ينجح الأديب الحقيقى سواء أكان شاعراً أو ناثراً فى إثارة الوجدان وبقدر ما يكون العمل الأدبى قادراً على التأثير فى العواطف وإشعال جذوة المشاعر والانفعالات الساكنة بقدر ما يكون بليغاً وهذا هو المقياس الأول فى تقدير قيمة النص الأدبى بلاغياً.

(٢) العقل وهو آلة معرفة الأشياء كما هى على حقيقتها معتمداً على الحواس خاصة السمع والبصر لإدراك خصائصها وعلى الفكر لفهم حركتها والقوانين الضابطة لسيرها فالعقل هو جهاز إدراك الكون المشهود وهو من ثم مستودع المعلومات والأفكار والرؤى .

«والعلم» هو طريق التعامل مع هذا المجال أو هذه الدائرة النفس الإنسانية والعلم هو الإدراك القائم على الدليل. إذ هو تكوين صورة عقلية للاشياء تكون بمثابة مرآة ترى الأشياء على صفحتها بشرط أن تقوم الأدلة الكافية التى تقطع بصحة هذه الصورة فلا علم إلاَّ بدليل عقلى لا ينقض.

والعقل جانب من القلب أو هو وظيفة من وظائفه بدليل قوله تعالى موبخاً «الكافرين» ﴿أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها﴾ (١)

«والفؤاد» هو إسم «العقل» فى النص القرآنى وهو الجانب الذى تم تنويره من القلب بنزول الوحى وتحصيل العلم وهو الذى فضُل به الإنسان على سائر الدواب على الأرض ولذلك أمتن به الله على الإنسان فى أكثر من آية إذ هو يمثل استعداد الإنسان الموهوب من الله لتلقى العلم فالقرآن يكرر فضل الله على الإنسان بإعطاء السمع والأبصار والأفئدة يعنى العقول ولم يقل القلوب والعلم هو الذى يرفع الإنسان ويجعله أقدر على معرفة الله.

ولكى يكون النص الأدبى «بليغا» يجب أن يخلو من الأخطاء والحكم فى هذا

---

(١) سورة الحج الآية ٤٦ .

«للعلم» يعنى للأدلة القاطعة والقرائن الوفيرة ولاشك أننا لا يمكننا أن نتذوق جمال بيت من الشعر أو قطعة من النثر إذا كانت تحتوى على اخطاء علمية أو تستند على أوهام أثبت العلم زيفها فما بالك بنص مقدس منسوب إلى الخالق العلى القدير النطق به .

وهكذا تقوم الصحة أو السلامة من الأخطاء كمعيار ثان للحكم على بلاغة النص وبقدر ما يحتوى النص على حقائق علمية عميقة وأفكار متألقة بالرجوع إلى حكم العقل وحده بقدر ما يكون هذا النص بليغا يؤثر فى النفس البشرية إذ أنه سيساعدها على اكتشاف الكون المشهود وإدراك حقائقه فيرفعها فى مدارج «العلم» الذى ارتفع به آدم فوق الملائكة فحق عليهم أن يسجدوا له كما أمرهم ربهم إذ صار آدم هو الأقرب .

(٣) «السلوك» وهو التصرف المشهود للإنسان إستجابة للنوازع الداخلية والمثيرات الخارجية فى البيئة وهذه الدائرة تقع تحت سلطان القانون أو الشريعة وتقوم القيم الخلقية بدور الميزان الذى يوزن به السلوك الإنسانى والذى يعنينا من هذه القيم هو «الصدق» فلا بد من توافر «الصدق» أى شعور المستمع او القارئ أن المتكلم أو الكاتب «صادق» فى كلامه لكى يكون للنص المسموع أو المكتوب تأثيراً فى نفس المتلقى إذ لا يمكننا أن نتأثر بقطعة أدبية ونحن نشعر أن واضعها كاذب فى ادعائاته وهو يخبرنا بأشياء لم يعاينها ويحكى لنا عن تجارب لم يعانيها فان هذا الشعور لابد أن يسلب النص البلاغة يعنى القدرة على التأثير مهما كانت البراعة اللغوية أو الأداء الفنى.

نخلص مما تقدم الى تلخيص وجهة نظرنا فى أن النص الادبى لابد له من ثلاثة شروط لكى يتصف بالبلاغة وبمقدار تحقق هذه الشروط يرتفع قدر النص فى سلم البلاغة وهى .

١ ـ الجمال وهو المعيار الفنى القائم على محاكمة الاسلوب .

٢ ـ الصحة أى السلامة من الاخطاء وهو المعيار العلمى القائم على إمتحان

مضمون النص بالعقل .

٣ ـ الصدق وهو المعيار الاخلاقى .

وسأتناول الآن بإذن الله دراسة النص القرآنى على ضوء هذه الاسس الموضوعية فلعلنا نوفق فى الصعود إلى هناك !!

(أ) الجمـــال الفريـــد ..

للقرآن المجيد ....

«الله نـزل أحسـن الحديث كتابا .... متشـابها مثانى تقشـعر منـه جلود الذين يخشون ربهم .... ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشآء ....ومن يضلل الله فما له من هاد»

(سورة الزمر الآية ٢٣)

١. موسيقى القرآن

أول ما يطالع بصر المتأمل من ملامح جمال «القرآن» هو الموسيقى العذبة التى تنبعث من ترتيل الآيات .

لقد سمى الوحى المحمدى «قرآنا» إشارة الى أنه قد نزل من الغيب على هيئة كلمات مسموعة وتأكيدا إلى أنه يجب أن يقرأ بمعنى ان يتلى بصوت تدركه الأذن لأنه حينئذ يتخذ أبهى ثيابه ويتجلى فى أجمل صوره .

بمجرد أن تبدأ التلاوة تنساب الموسيقى كأنها الماء يسيل فى مجراه من السمع الذى ينتشى من بديع الايقاع وحلاوة الاصوات وتناسق المقاطع الى القلب الذى يصحو من غفلة النسيان فينتبه العقل متسائلا عن السر الكامن فى هذا الكلام .

يجذب القرآن قلوب مستمعيه بموسيقاه التى لا يعرف الانسان لها نظيرا ولا يمكنه أن يحدد من أين تنبع.

هذه الموسيقى المدهشة لفتت انتباه كل الاجانب من المستشرقين الذين أتيح لهم أن «يسمعوا» القرآن كما أذهلت العرب الذين خاطبهم «محمد» صلى الله عليه وسلم بالقرآن وهم أهل الشعر وأصحاب المواهب الرفيعة فى تذوق النظم .

أذكر أننى حاولت ـ منذ بضعة سنوات ـ تحفيظ إبنتى سورة «البينة» ولم تكن حينئذ قد شارفت العام السادس من عمرها .

جلسنا ـ أنا وهى ـ فى شرفة المنزل وكان الوقت ليلا وصدر السمآء قد تزين بجواهر النجوم المتألقة وبدأت أتلو بصوت مسموع (١) ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة ، رسول من الله يتلو صحفا مطهرة فيها كتب قيمة﴾ فاذا بالطفلة الصغيرة تقول لى وقد استخفها الطرب «حلوة جدا هذه الكلمات يا أبى كأنها أغنية «فقلت لها» أيها تقصدين ؟!»

---

(١) سورة البينه (١ ـ ٣)

فأعادت التلاوة وهى تتمايل برأسها كأنها تغنى

﴿منفكين حتى تأتيهم البينه رسول من الله يتلو صحفا مطهرة فيها كتب قيمة﴾

نطقتها وهى تحاكى صوتى محاولة النطق الصحيح بقدر ما يسمح عمرها الصغير . تبسمت ضاحكا وأنا أتامل فى سر هذا القرآن البديع الذى أطرب هذه الطفله دون أن تفقه كلماته .

فمن المؤكد أنها لا تعرف معنى الألفاظ ولا عن أى شئ تتحدث الآيات فعمرها الصغير يحول بينها وبين إدراك معنى الكفر والشرك وأهل الكتاب وكيف لها أن تفهم أن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» هو البينة التى ستقيم الحجة على المشركين وكفار أهل الكتاب من اليهود والنصارى وهل يمكن لها أن تدرك معنى «منفكين» هذه والصحف المطهرة والكتب القيمة !!

وليس فى الآيات «سجع» يمكن أن تلتقطه أذنها

بينــــة ..... نة

مطهرة ..... رة

قيمــــة ..... مة

ولاتكرار ولا اية زخارف سمعية فما هو السر فى هذا الطرب ؟!

ولاح لى أن السر يكمـــن فـــى الايقـــاع (أو الوزن) وفى إختيار الاصوات (= الحروف) التى تبنى بها الآيات وترتيبها فى تناسق يحدث هذا الاثر الموسيقى الجميل .

ومعنى هذا أن المتكلم بالقرآن لديه دراية كاملة بامكانيات الحروف وطرق تزاوجها وترابطها لتكوين الألفاظ وهو فى الوقت نفسه على علم تام بالمعانى أو الدلالات الدقيقة التى تشير اليها الكلمات وأنه حين يتكلم يختار الألفاظ التى

تؤدى المعانى التى يريدها بالضبط وفى نفس الوقت يخلق متعة سمعية لدى المخاطب فهو لايقصد مجرد إبلاغ المعنى أو الرسالة بل يحب إمتاع السمع الذى جاء إليه منصتا.

وليس لمخلوق أن يقدر على صنع هذا بل ليس له أن يطمح إلى إمتلاك ذلك العلم المحيط وتلك القدرة الكاملة .

إن الميزة الأساسيه التى يتصف بها الشعر وتعد الحد الفاصل الذى يفرقه عن النثر هى إستعماله للألفاظ بإعتبارها «أصوات» بالاضافة إلى دلالتها اللغوية أى معانيها لأن الشاعر يطمح ليس فقط إلى الافصاح عن المعنى المعبر عن تجربته بل إيضا إلى إحداث نوع من اللذة السمعية لدى المتلقى يحاول بها أن يدفعه إلى مشاركته فى تجربته الوجدانية الفكرية.

ولما كان القرآن يخلق لدى المستمع نفس اللذة السمعية أو الطرب الذى يصنعه الشعر الجيد بل على نحو أعمق وأقوى فإن المتشككين فى آلهية القرآن وصموه بأنه شعر وقالوا عن «محمد» صلى الله عليه وسلم«شاعر مجنون» (١)

وقد رد الله عليهم نافيا أن يكون القرآن شعرا

﴿وما علمناه الشعر وما ينبغى له ، إن هو الا ذكر وقرآن مبين﴾ (٢)

وقال ﴿وما هو بقول شاعر قليلا ماتؤمنون﴾(٣)

والسؤال ـ بغض النظر عن دفع الله للاتهام هل القرآن شعر ؟!

نريد إجابه موضوعية تعتمد على تحليل النص

---

(١) ويقولون اننا لتاركون آلهتنا لشاعر مجنون ـ الصافات ٣٦

«أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون» الطور ٣٠

«بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر» الأنبياء٥

(٢) سورة يس الآية ٦٩

(٣) الحاقة ٤١

أولاً : ينبغى للشعر الحقيقى الذى يستحق هذا الاسم فعلا أن يعبر عن تجربة إنسانية عميقة خاض الشاعر غمارها بنفسه أو استطاع بموهبته أن يتقمص شخوص الذين خاضوها فيتمكن بقدرته ومهارته أن يتكلم على ألسنتهم أو يجعلهم ينطقون بصوته لأنه إذا فقد الشعر التجربه الشعورية (الوجدانية العقلية) فقد فقد هويته وتحول إلى مجرد " نظم " أى كلمات محايدة باردة قد صبت فى قوالب إيقاعية .

لابد أن نرى فى الشعر تجارب " الشاعر " وأزماته الوجدانية والفكرية ولحظات يأسه وفرحه فأين حياة " محمد " الشخصية وتجاربه الانسانية العميقة أين نجدها فى القرآن ؟!

لقد خاض " محمد " صلى الله عليه وسلم كإنسان حياة عميقة مضطربة زاخرة بالابتلاءات الكبيرة إذ ثار على شعب وثنى داعياً إياه إلى التوحيد مقوضا أركان المجتمع الذى عاش فيه وخاض حروبا ضارية وتعرض للايذاء والاهانة وحاولوا اغتياله أكثر من مرة وفقد كل أطفاله الذكور إذ ماتو قبل أن يشبوا فضلا عن أنه قد عانى اليتم منذ نعومة أظفاره وفارقته أمرأته الحبيبة بالموت فى أدق لحظة من حياته وهو يتعرض لمطاردة السوقة والسفهاء والاطفال المشاغبين فى قبيله بنى ثقيف وفقد عمه فى نفس الوقت وقد كان فى أشد الحاجة إلى مؤازرته .....

حياة حافلة كانت جديرة بإنتاج أروع القصائد الإنسانية لانها بالفعل كانت أروع التجارب الإنسانية على هذا الكوكب الارضى ولكننا لن نجد لهذه الحياة الانسانية فى آيات وسور القرآن التى تظهر بجلاء أنها تتجاوز حياة الرسول الشخصية .

فى غزوة " حنين " قبيل نهاية عمره فوق هذه الأرض وقد صار المسلمين قوة واستتب لهم الأمر فى جزيرة العرب فاعتدوا بأنفسهم فلما حمى وطيس المعركة إمتحنهم الله ففروا من حوله وتركوه وحده وسيوف الأعداء ورماحهم تحيط به من

كل جانب كان " الهلاك " يبدو أقرب شئ لايبعد أكثر من ضربة بسيف أو طعنه برمح إنها تلك اللحظة الحاسمة التى يواجه فيها الإنسان مصيره عارى الصدر . أمام الموت وجها لوجه دون أى حجاب يحدق فى جوهر حياته ومغزى وجوده .نزل عن بغلته وتقلد سيفه وقام يقاتل الاعداء مقام الجيش كله . انطلق صوته قويا مهيبا كأنه شمس هائلة تبدد الظلمات دفعة واحدة

" أنا النبى لا كذب

أنا بن عبد المطلب "(١)

سرى صوته كالرعد نافذا من بين السيوف التى أحاطت به فأنتبه " المؤمنون " من موت فرارهم وخذلانهم وقاموا مسرعين وقد انتعش الامل بقلوبهم فى نصر الله وكان اليأس قد أوشك أن يقتلهم إذ طارت فيهم مقولة الأعداء " محمد قد مات " فجاء صوته دليلا حيا على حياته وكان قتاله وحده برهانا ساطعا على شجاعته التى لا نظير لها . إنه القائد الشجاع الذى يستحق الفداء . هكذا خاطبه جان جاك روسو عابرا حجاب الزمن (٢) " أيها النبى رسول الله خذ بيدنا إلى مواقف الشرف والفخار أو مواقع التهلكة والأخطار فنحن من أجلك نود الموت أو الانتصار "

(١) صيغة الحصر فى الحديث الشريف التى توحى بمعنى " لانبى غيرى " تلمح إلى أن الأنبياء من قبله أنما كانوا بمثابة وكلاء عنه أو نواب ينوبون عنه من قبل ظهوره فلما ظهر فى صورة " محمد " بن عبد الله بمكة المكرمة أغلق باب النبوة إذ لا معنى لعمل الوكيل فى حضور صاحب الأمر ونفهم من هذا أن النبى " محمد " صلى الله عليه وسلم هو أصل النبوة وأن ظهوره قد أغلق بابها ومن ثم فإن ختم النبوة حقيقة يؤكدها النص .

(٢) كتاب الإسلام : خواطر وسوانح ص ٢٠ تأليف الكونت هنرى دى كاسترى .

ولقد نجت الإنسانية كلها من هول الطامة الكبرى التى كانت ستحل بهذا الكوكب الأرضى لو أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد لقى حتفه شهيداً فى غزو حنين .

أنا النبى لا كذب أنا بن عبد المطلب

هذا بيت من الشعر بلا جدال وقد نطق به النبى العربى فى تلك اللحظة العصيبة عند إندحار جيشه ووقوفه وحده مكشوفاً يقاتل الأعداء بسيفه . فى هذا البيت نسمع صوت " محمد " الإنسان العربى المفطور على حب الشعر والذى لم يملك وجدانه العربى الأصيل إلا أن يستجيب لهذا الموقف الهائل ببيت صغير ووحيد من الشعر ولو كان " محمد " صلى الله عليه وسلم شاعرا حقا لاستطاع أن ينظم قصيدة رائعة تناظر تجربته المروعة وسيوف الأعداء توشك أن تقطر من دمه ولكنه لم يكن شاعرا لذلك توقف عند البيت الأول . الذى يعنينا هنا أن هذا البيت الذى قاله " محمد " الإنسان لم يضف إلى أى سورة من سور القرآن ولم نجد لتجربته النفسية أى أثر فى صياغة الآيات التى عبرت عن سير هذه المعركة . يقول القرآن

"لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغنى عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا ، وذلك جزاء الكافرين" (١)

هنا يختفى صوت " محمد " الانسان الذى جاشت نفسه ويظهر لنا صوت آخر لا ريب أنه الله الحكيم القدير الذى يخاطب المؤمنين بلسان رسوله صلى الله عليه وسلم ملقيا إليهم بالموعظة يطمئنهم على دوام تأييده ويتوعد الكافرين بعظيم عذابه . لاتخطئ عين ولا أذن الفرق الشاسع بين صوت المتكلم بالقرآن وصوت " محمد " الانسان .

---

(١) سورة التوبة (٢٥ - ٢٦)

ثانياً : ـ لابد للشعر أن يصب الألفاظ فى قوالب إيقاعية هى البحور أو التفعيلات لكى يحدث الأثر السمعى الذى يهب للشعر جوهره وإلا تحول إلى نثر فلا شعر دون موسيقى تدركها الأذن بمجرد إلقاء الكلمات ولكننا نستطيع دوماً أن نميز بيا المعانى والاصوات بمعنى أننا نشعر بأن الموسيقى تصاحب الدلالات فيبدو لنا الشاعر وهو يسكب الألفاظ التى تحمل المعانى المعبرة عن التجربة فى الأوانى الايقاعية الفارغة والتى يمكن أن تملأ بألفاظ أخرى على نفس الوزن وهذا برهان " الصنعة " ومهما كانت براعة الشاعر وقدرته على اختيار الألفاظ المناسبة وصدقه المتأجج وبعده عن التكلف الزائد أو الزخرفة والتنميق ومهما بلغت موهبته فإننا نظل قادرين على التميز بين المعنى والصوت بين الدلالة والايقاع ولذلك كانت روائع الشعر دائماً مثلا يحتذى يقوم الشعراء بتقليدها إذ يعمدون إلى قصيدة مشهورة ويحاولون أن ينسجوا على " منوالها " قصائد من نفس البحر وعلى نفس القافية وفى نفس الغرض أو الموضوع أو فى غيره وتكون تلك القصائد المتناظرة المنسوجة على منوال واحد موضع التنافس بين الشعراء أيهم أجود . والمثل الأشهر على هذا هو قصيدة البردة للبوصيرى التى كانت المثل الذى احتذاه كثير من الشعراء فنسجوا على منوالها قصائدا عديدة لعل أشهرها قصيدة أمير الشعراء أحمد شوقى " نهج البردة "

أما فى النص القرآنى فإننا رغم الاحساس العالى بالموسيقى الباهرة التى تنبعث من النص عند الترتيل فإننا لانستطيع أن نميز بين المعنى والصوت أو بين الدلالة والإيقاع فلا يمكننا أن نضع كلمة أخرى لها نفس المعنى والوزن مكان الكلمة القرآنية فالمعنى والصوت والدلاله والايقاع يلبس كل منهما الآخر كالقلب الجسم لا نستطيع أن نفصلهما وإلا حدث الموت .

والدليل الذى لا يقهر هو عجز أعظم الشعراء وأبلغ الناثرين عن أن ينسجوا قصائد أو مقطوعات نثرية على " منوال " القرآن الذى ظل طوال ألف وأربعمائة عام المثل الاعلى للبلاغة كما أقر بهذا العرب العجم قديماً وحديثاً والسر أن

القرآن لا يسكب ألفاظه فى قوالب سابقة التجهيز كما يفعل الشعر إذ لا يوجد " منوال " ينسج القرآن ألفاظه عليه وهذا برهان ذوقى لا يدحض وهو قاطع لكل شك على انعدام " الصنعة " فى النص القرآنى الذى تبدو فيه الموسيقى منبعثة من داخل الكلمات أو من قلب الألفاظ وليس من خارجها ومن تآلف الأصوات (= الحروف) وتزاوجها وتناسق المقاطع فى سياق عجيب محكم يهز القلوب ولا يستطيع المستمع أن يشير إلى الينبوع الذى تندفع منه الموسيقى الباهرة عند الترتيل.

إن الإعجاب يولد الرغبة فى المحاكاة وكانت الروائع الأدبية دائماً مثار تقليد إلا أن القرآن يبقى دائماً نموذجاً فريداً لا يقبل التكرار.

فكما لا يستطيع أى مخلوق أن يخلق كائناً حياً كذلك لا يقدر إنس ولا جان على محاكاة القرآن المجيد.

لقد اعترف كل المستشرقين الذين أتيح لهم أن يقرأوا ويسمعوا القرآن اعترفوا باستحالة ترجمته حرفيا واستحالة أن تقوم أى ترجمة مهما بلغت دقتها وإخلاصها مقام الصورة المناظرة للنص العربى لأن هذه الموسيقى البديعة ستختفى حتما فى الترجمة ومن هنا يتبن لنا حكمة الخالق العلى القدير الذى أختار اللغة العربية لتكون وعاء مشهودا لكلامه " المقدس " الغيبى فكانت أجمل جسم لأعظم قلب يمتلئ بالنور (١).

من المؤكد أن " القرآن " ليس نثرا لأن الطابع الإيقاعى له أوضح من أن

---

(١) من المؤكد أن العربية هى أفضل لغات البشر قاطبة ومن ثم كانت جديرة بحمل كلام الله الذى هو أفضل كلام وهذا حكم علمى موضوعى وليس تعصباً عنصرياً فهى أكثر اللغات أصواتاً (= حروفاً) وفيها أصوات (= حروف) لا تنطق فى أى اللغات الأخرى وهى أغنى اللغات جذوراً إذ يتجاوز مجموع جذورها ستة عشرة ألف جذر متجاوزة ثروة اللغات الأخرى أضعافاً مضاعفة وهى تتميز بسهولة الإشتقاق فيمكن توليد عشرات الألفاظ من جذر واحد ولا يمكن لأى لغة أخرى أن تجاريها فى هذا المضمار وهذه السهولة فى الاشتقاق تمكنها من التعبير=

تخطئه أذن كما أن بناءه يختلف جوهريا عن كتب النثر فهو لا ينقسم إلى أبواب وفصول أو حتى مشاهد قصصية ولا يتناول الموضوعات بطريقة منظمة متسلسلة عارضا القضايا بأسلوب السرد والجمل التقريرية مبينا المقدمات ممهدا للنتائج كما يفعل الناثرون وقد أوضحنا أنه ليس شعرا فماذا يكون ؟

يخبرنا النص القرآنى بمجرد تلاوته أنه نسيج وحده ليس له " منوال " يمكن نسج مثيله عليه ويستحيل تصنيفه فهو يقف فريدا فى نوعه بأسلوبه الفذ الذى لا يتكر ر وخير إجابة على السؤال هى إجابة " القرآن " إذ يصف نفسه بقوله " بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ " (١)

= الأوضاع والمعانى المركبة وهى تشبه فى هذا " الماء " السائل لعجيب الحامل " للروح " سر الحياة فقد تشكل فى كافة صور الحياة لا يحدها حصر مظهرة هذا التنوع المدهش الذى يملأ الكون المشهود بالجمال . واللغة العربية هى أم اللغات السامية الأفرو آسيوية بإجماع علماء اللغات فهى اللغة الأم التى تولدت منها سائر اللغات التى تكلمت بها الشعوب التى تسكن أفريقيا وآسيا وليس بعيداً أن يثبت العلم فى المستقبل القريب أن اللغة العربية هى أم اللغات البشرية جميعها يعنى ببساطة هى اللغة التى تكل م بها الإنسان الأول على الأرض كم ا أثبتت السيدة تحية عبد العزيز إسماعيل أستاذة اللغويات فى بحث لها بعنوان "اللغة العربية أصل اللغات"

(١) سورة البروج (٢١ - ٢٢)

٣. تيار الوحى

عندما يفتح الإنسان المصحف ليقرأ القرآن راغباً فى أن يتعرف على ما يقوله ليصل إلى مضمونه فإن أول وأقوى ما يجذب " عقل " المتأمل هو السياق القرآنى الفريد الذى لا يوجد له مثيل فى أى " نص " آخر مكتوب بأى لغة من لغات البشر .

فإذا كان " القرآن " يبدأ بفاتحة الكتاب التى فى جوهرها ثناء وتمجيد لله ينتهى بدعاء وهى بداية مناسبة تماماً لكتاب دينى يظن العقل لأول وهلة أنه سيحتوى على الصلوات والطقوس وتفاصيل الشريعة كأسفار الخروج واللاويين والتثنية من أسفار التوراة المنسوبة لموسى " عليه الصلاة والسلام " إلاّ أن العقل يفاجأ فى الصفحة الثانية مباشرة بالحروف المثيرة التى تبدأ بها سورة البقرة وعديد من سورة القرآن .

أن هذه الحروف التى يحبَ أن تقرأ مقطّعة منفصلة عن بعضها تعطى القلب إنطباعاً قوياً ً أنها إشارات إلى أسرار غائبة لم يحن الوقت بعد للكشف عنها أو هى رموز لحقائق غامضة على العقل المتدبر أن يجتهد لتجليتها .

إنها بداية غريبة ومشوقة تثير الفؤاد المتحفز لإقتناص المكنونات البعيدة . ثم يمضى النص بوصف موقف البشر من الوحى وكيف ينقسمون إلى مؤمن وكافر ومنافق ذاكراً خصال كل صنف وينتقل السياق دون أن تنتبه الأذن إلى بدايات خلق السماوات والأرض ويقص علينا نبأ الإنسان الأول " آدم " وإمتحان الملائكة والفتنة التى إنتهت بالنزول إلى الأرض مؤذنةً بفجر الدنيا ويقدم السياق إلى الأمام الآف الأعوام دون أن يشعر القارئ بأى قلق أو اضطراب كأنه تحرك مالا يحصى من السنين دون أن يمشى خطوة واحدة فيكشف لنا عما فعله بنو إسرائيل مع " موسى " رسولهم بين مصر والشام قبل أن ينزل القرآن بما يقرب من ألفى عام لكنه يحضر الأحداث أمامنا حية ساخنة كأنها تقع الآن رغم مرور أربعة الآف عام ودون أن نحس بمرور الزمن كما لو كنا قد أصبحنا خارجه أو أننا حقاً

قد تحررنا من قبضته . نشهد تحطم بنيان هذا الكون وموته ونرى كيف يولد من بعده كون جديد تتبدى لنا مشاهدة رائعة دقيقة المعالم واضحة التفاصيل نسمع فيها صرخات الذين حقت عليهم كلمة العذاب وهم يجأرون من الألم ويلهثون من العطش ويتلون من الجوع فلا يشربون إلاّ الحميم والصديد ولا يأكلون إلاّ الغسلين والزقوم ولا حميم ولا شفيع ولا رحيم ونرى المكرمين على الأرائك متكين يدعون بكل فاكهة آمنين تحت الظلال الوارفة والحور مقصورات فى الخيام ينتظرن فى شوق اللقاء ومن بين المشاهد الرائعة والأحداث المروعة تخرج الأحكام الشرعية والآداب التى تتناول كل شئون الإنسان على هذه الأرض . الزواج والطلاق وتربية الأطفال وبناء البيت والمجتمع والمال والدماء والقتل والطعام والشراب والصلاة والزكاة والصيام والحج وتتناثر فى دقة ورقة الآيات التى تدعوا الإنسان للتفكر فى صنع الخالق الكبير المتعال الذى يملأ السماوات والأرض بدلالات أسمائه وتتوالى الإنذارات والبشارات والتذكارات والحوارات المتدفقة فى سياق عجيب مذهل يُسْمِعنا صوت نملة خافت على أهلها فقامت تخطب فيهم تحذرهم من أن يدهمهم جيش " سليمان " النبى الملك الذى سيقف بين يديه بعد قليل " هدهد " يلقى محاضرة بليغة عن الوحدانية ويسمعنا أصوات الأمم وهم يتخاصمون فى النار .

ها هنا ليس ثمة ماض ولا آت بل كل شئ حاضر الآن فى تيار واحد يأخذ الجميع فى جريانه الدائم ولا يخرج من قبضته أحد . هذا رغم أننا نعلم من التاريخ أن هذه الآيات قد نزلت فى أحيان متفرقة تحكمها ظروف مختلفة فكيف ضمها سياق واحد لا تشعر الأذن ولا العقل أنه يتعثر أو يضطرب .

أى شئ يشبه هذا النسق ؟

ربما اشتبه لى قارئ الأدب مع أسلوب " تيار الوعى " ذلك الأسلوب الذى ابتدعه مجددوا الرواية فى القرن العشرين وعلى رأسهم " جيمس جويس " وهو الأسلوب الذى يعتمد على طريقة التداعى الحر فى وصف مكنونات الشخصية

الفنية فى الرواية حيث ينتقل الكاتب من ذكر حوار إلى تذكر حادثة قديمة تعود إلى الطفولة ومنها إلى حلم قريب يستدعى وصف منظر خارجى وهكذا يستعمل الروائى الكلمات كمصباح يكشف به عن باطن الشخصية محاولاً رسم صورة بالألفاظ لخزائن الذكرة الإنسانية .

إننا فى تيار الوعى نظل منحصرين فى عوالم ضيقة هى بواطن شخصيات الرواية التى يعتريها الإضطراب وتدخل المشاهد فى ضبابية معتمة ويتعثر السياق ويتعسَّر علينا الفهم ولا يطمع الكاتب فى أن يثرى عقولنا بقدر أن يُشعر وجداننا بما يعترى أبطاله من تغيرات مستمرة عبر مرور الزمن وكثيراً ما يجشمنا الكاتب عناء معاينة جم غفير من التفاصيل التافهة .

أما فى " تيار الوحى " الذى يأخذنا فيه النص القرآنى فإننا ندخل عوالم واسعة مدهشة تسع الدنيا والآخرة وتمر علينا الأحقاب المتطاولة لا نشعر بوطأة سريانها نطير فى خفة خافية من الماضى السحيق إلى المستقبل البعيد دون أن نغادر مكاننا أو نضطر إلى تحريك أجنحتنا نعاين علماً محيطاً بكل شئ يتبين ما يحدث فى السموات بقدر تبينه لما يعتمل فى جوف الأرض ويسمع ما تنطق به الملائكة بقدر سمعه لخلجات النفوس التى لم تغادر الصمت إن النص القرآنى يمضى هادراً كالبحر العميق تتوالى أمواجه واحدة فى إثر أخرى منساباً من موضوع إلى آخر دون أن يفقد قوته أو يضطرب إندفاعه مما يفصح عن أن " المتكلم " لايتردد ولا يتلعثم ولا تقل قوة حفظه ولا حدة علمه رغم البون الزمنى الشاسع الذى يفصل بين الوقائع التى يكشفها والتنوع الهائل فى القضايا التى يجليها إذ تدخل فى نطاق علوم ومعارف واسعة الإمتداد والعمق لايستطيع فرد واحد ولا جمع غفير من البشر أن يحملها .

ويجرى النص القرآنى دون أن يفقد وضوحه أو يزول جماله إذ يظل محافظاً

الله "ولا يسعه أن يفعل بقوته البشرية فهو أمى لايكتب وإنما يتمكن من القراءة " باسم الله " الذى يحمله فى قلبه " صلى الله عليه وسلم " ولذلك قال له فى أول موجة من تيار الوحى ﴿ إقرأ باسم ربك ﴾ (١) إسم الرب هو الوسيلة التى

إضطرار ولا يعوزه شئ سبحانه وتعالى جَلّ قرآنه عن أن يكون له مثيل كما لم يكن لذاته كفواً أحد !!

وإذا كان " تيار الوعى " يمثل محاولة الإنسان الأديب لرسم صورة شاملة للذاكرة وتسجيل وعيه بنفسه فى لحظة معينة فإن " تيار الوحى " - ولله المثل الأعلى - هو النور الذى يكشف للنبى - وللمؤمنين من ورائه - الذاكرة الآلهية أعنى مستودع العلم الآلهى وهو الكتاب الذى سجل الله فيه علمه راسما بقلمه على صفحاته قصة السموات والأرض كاتباً كل الوقائع منذ انبعثت الأرادة الآلهية للكشف عن نفسه إذ أحب أن يُعرف إلى أن تأتى " الساعة " التى يتهاوى فيها بناء الكون ويرث الله الأرض ومن عليها .

ذلك الكتاب الذى أشارت إليه الحروف المقطعة فى أوائل بعض سور القرآن ولنقرأ سوياً ﴿ الم ﴾ (١) .

ألف . لام . ميم

ترى ما هى هذه الحروف . إنها رموز تشير إلى سر فالآم تشير هذه الأصوات ؟ !

لابد أن هذا هو السؤال الذى يتبادر إلى فؤاد النبى الذى يتلقى الوحى ويثير كل من يقرا القرآن . حقا إلى أى شئ تشير ؟! ويأتى الجواب مباشرة فى الآية التالية . ﴿ذلك الكتاب لاريب فيه﴾ (٢)

هذه الحروف التى تتساءلون عنها تشير إلىالكتاب الذى أودع الله فيه علمه ولا يشك أحد من الخلق فيه لانه فوق مستوى الشك .

ذا : إسم إشارة للبعيد .

واللام : لتأكيد البعد فهى تفيد أيضا بعُد المُشار إليه .

وك : خطاب إلى النبي الأمى الذى يتلقى الوحى ومناط به قراءة " كتاب

---

(١) سورة البقرة الآية الأولى . (٢) سورة البقرة الآية ٢ .

الله "ولا يسعه أن يفعل بقوته البشرية فهو أمى لايكتب وإنما يتمكن من القراءة " باسم الله " الذى يحمله فى قلبه " صلى الله عليه وسلم " ولذلك قال له فى أول موجة من تيار الوحى ﴿ إقرأ باسم ربك ﴾ (١) إسم الرب هو الوسيلة التى تمكنك من قراءة " ذلك الكتاب" الذى سجل الله فيه علمه وهو بمثابة الذاكرة الآهية .

وليس المقصود هذا القرآن لأن القرآن قريب فى قلب " محمد" على لسانه ينطق به ويخرج من بين شفتيه وهو قريب من القارئ إذ يمسك بيديه المصحف الذى يضم بين دفتيه آياته ولذلك يشار إلى القرآن فى كل سور القرآن بإسم الإشارة " هذا " فليس هو ذلك الكتاب بل هذا القرآن .

﴿ وأوحى إلىَّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ﴾ (٢)

﴿ وإذا تتلى عليهم أياتنا بينات قال الذين لايرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله ﴾ (٣)

﴿ وما كان هذا القرآن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين ﴾ (٤)

تأمل فى هذه الآية جيداً فقد وضحت بعض أهداف تنزيل القرآن وبينت ما هو الكتاب الذى لاريب فيه وعلاقته بالقرآن إذ يقول الله فى هذه الآية أن " القران " وأشار إليه بإسم الإشارة" هذا " أعظم من أن يستطيع بشر أن يؤلفه ثم يجد الجرأة فى نفسه لينسبه إلى الله إذ يستحيل أن يُنسب إلى الله بدون علمه أو رغم إرادته لأنه أنزله بعلمه وإذنه وما كان لمخلوق أن يطلع عليه لولا أنَّ الله سبحانه وتعالى أحب هذا ليؤدى القرآن الوظيفتين الجوهريتين للإنسانية وهما تأكيد

---

(١) سورة العلق الآية الاولى .　　(٢) سورة الأنعام الآية ١٩ .

(٣) سورة يونس الآية ١٥.　　(٤) سورة يونس الآية ٣٧

صدق الكتب السابقة التى أنزلها الله على أنبيائه قبل " محمد " صلى الله عليه وسلم فى هذه الدنيا .

والثانية توضيح كتاب العلم الآلهى الموصوف بأنه لاريب فيه يعنى لايشك فيه أحد فهو فوق الشبهات والذى نزل من اله الإنسان فى بدء الدنيا . هذه الآية ذكرت" هذا " القرآن " وذلك " الكتاب وبينت العلاقة بينهما فتأملها وإذا أردت المزيد لتقتنع أن القرآن ليس هو ذلك الكتاب المشار إليه فى أول سورة البقرة فأقرأ الآيات التالية ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ (١) ﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ﴾ (٢)

﴿ ولقد صرفنا فى هذا القرآن ليذكروا وما يزيدهم إلانفورا ﴾ (٣)

﴿ قل لئن أجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لاياتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ (٤)

﴿ ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا ﴾ (٥)

﴿ ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شئ جدلاً ﴾ (٦)

﴿ وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ﴾ (٧)

﴿ إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون ﴾ (٨)

---

(١) سورة يوسف الآية ٣ .

(٢) سورة الإسراء الآية ٩.

(٣) سورة الإسراء الآية ٤١ .

(٤) سورة الإسراء الآية ٨٨

(٥) سورة الإسراء الآية ٨٩ .

(٦) سورة الكهف ٥٤.

(٧) سورة الفرقان ٣٠.

(٨) سورة النمل ٧٦.

﴿ ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم الاَّ مبطلون ﴾ (١)

﴿ وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه ﴾ (٢)

﴿ ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون ﴾(٣)

﴿ وقال الذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾ (٤)

﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ (٥) وأخيراً

﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾ (٦)

ولنتفكر كيف أنه لم يشر ولا مرة واحدة إلى القرآن إلاَّ بأسم الإشارة (هذا) رغم إختلاف ظروف تنزيل الآيات وإختلاف من يتكلم الله على لسانه فمرة يكون الكلام من الله ومرة على لسان الرسول ومرة على لسان الكافرين ولكن فى كل مرة وفى جميع الحالات لايشار إليه إن اريد الاشارة إلاَّ بـ (هذا) فتأمل فى الدقة وعدم الغفلة أو النسيان .

والأمر الثانى أن الكتاب وصف بأنه لاريب فيه وهذه ليست حال القرآن لأن الكافر لايوصف بالكفر إلا لأنه يشك فى القرآن فالريب فى القرآن واقع بل هو

(١) سورة الروم ٥٨. (٢) سورة سبأ ٣١.
(٣) سورة الزمر الآية ٢٧. (٤) سورة فصلت الآية ٢٦ .
(٥) سورة الزخرف الآية ٣١. (٩) سورة الحشر الآية ٢١ .

موضع التحدى فى قوله فى نفس السورة ﴿وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ (١)

وقد وضحت الآية السابعة والثلاثين من سورة يونس أن القرآن إنما صدر عن الله لتوضيح الكتاب الذى لاريب فيه والذى نزل من رب العالمين .

ذلك الكتاب هو خزينة العلمُ الإلهى كما سبق أن أوضحنا .

ولنتدبر قليلاً فى الحروف المقطعة لنتأكد أنها تشير إلى كتاب العلم الإلهى ثم نبين العلاقة بين هذا القرآن وذلك الكتاب .

﴿ألر ، تلك آيات الكتاب المبين﴾ (٢)

﴿طسم ، تلك آيات الكتاب المبين﴾ (٣)

﴿طسم ، يلك آيات الكتاب المبين﴾ (٤)

والسؤال ما هو الكتاب المبين التى تشير هذه الحروف المقطعة إلى آياته مع ملاحظة التنبيه على البعد بأداة الإشارة " تلك " " والقرآن " قريب كما أسلفنا وهذه الحروف غامضة غير واضحة الدلالة للقارئ والقرآن بليغ مفصل وصفة " المبين " تعنى تحقيق الصفة فى الموصوف فلا يجادل قيها أحد فعندما قال " ثعبان مبين " يعنى ثعبان حقيقى لم يشك احد من الذين رأوه حتى فرعون نفسه فى طبيعته الثعبانية ووصف " الوحى " الإلهى إلى "محمد " النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه الدنيا هو أنه " قرآن " يعنى كلمات تقرأ أى تنطق وتدرك بالسمع فقد تلقاها " محمد " صلى الله عليه وسلم إستماعاً ويبلغها شفاهةً ويكتبها غيره يإملائه وذلك بالخلاف مع التوراة مثلاً التى كتبت " لموسى " عليه الصلاة والسلام على

---

(١) البقرة الآية ٢٣ .
(٢)سورة يوسف الآية الآولى .
(٣) سورة الشعراء ١-٢.
(٤) سورة القصص ١-٢ .

الألواح الحجرية ﴿ وكتبنا له فى الألواح من كل شئ موعظة﴾ (١) فوحى الله إلى " محمد " قرآن مبين ﴿ إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ﴾ (٢)

ولكن الإجابة القاطعة على السؤال ما هو الكتاب المبين تأتى من القرآن نفسه إذ يقول .

﴿ وعند مفاتح الغيب ، ولا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولايابس إلا كتاب مبين ﴾ (٣)

يخبرنا أن الله يملك الوسائل التى تفتح الغيب أى تحوله إلى شهادة فيصبح حاضراً بعد أن كان غائبا وهذه المفاتح هى الكلمات المسطورة فى صفحات كتاب العلم الإلهى فإنها خزائن مغلقة على مافيها فإذا توجهت اليها المشيئة الإلهية ونزل عليها النور اكتسبت قوة الحضور وانفتح الغيب إو صار مشهوداً ولا يتبين تلك الكلمات إلاّ الله وحده الذى لم يزل غيباً إذ لايتجلى إلاّ يوم القيامة .

يتبين سبحانه وتعالى كل شئ فلا يخفى عليه شئ سواء كان مشهودا لك يا محمد أم كان غائبا عنك فهو يتبين ما يقع على الأرض اليابسة وما يغوص فى البحر بل لاتسقط ورقة من أى شجرة إلا كانت معلومة له ولا حتى بذرة صغيرة مدفونة فى طبقات الأرض ولا شئ يبلله الماء أو جف بعد أن فقد سر الحياة لاشئ إلاّ وهو واقع فى علم الله لأن كل شئ قد كتبه الله وأحصاه فى كتاب مبين . إذن فالكتاب المبين هو خزينة العلم الإلهى أو الذاكرة الإلهية التى سجل على صفحاتها علمه وها هو يوالى الكشف عنه .

ويقول : ﴿ وما تكون فى شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من

---

(١) الأعراف ١٤٥ (٢) سورة يس ٦٩ .

(٣) سورة الأنعام اللآية ٥٩ .

مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ﴾ (١)

إذن فكل أعمال العباد مشهودة من الله لأن كل أعمالهم وهم أنفسهم كانوا محبوسين فى كتاب مبين فلما أراد الله أن يظهرهم من الغيب ألتفت إليهم وقال " كن " فاكتسبوا سر الحياة وقوة الحضور فكيف لايعلم بهم وهو الذى أخرجهم « بروحه » من الغيب .

ويقول ﴿ وما من دآبة فى الأرض إلأ على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها ، كل فى كتاب مبين ﴾ (٢)

ويقول ﴿ وما من غائبة فى السماء والأرض إلاَّ فى كتاب مبين ﴾ (٣)

يعنى كل الكلمات التى تغيب عنك يا أيها النبى خارجة عن شهودك سواء كانت فى السماء أو فى الأرض فإنها أودعت فى كتاب مبين أنيط به أن يحفظ كل شئ فهو بمثابة الذاكرة الإلهية .

علينا أن نلحظ التأنيث فى "غائبة " لأنه إشارة إلى أن كل المخلوقات إنما هى كلمات لله أودعها فى كتابه فإن نطق بها صارت مشهودة وإن سكت عنها سُلب منها " الروح" وعادت لتغيب .

وأنفس الموتى تسرى فى ذلك السبيل فإنها تعود لتحُفظ فى كتاب الله تنتظر أن يلتفت إليها فيلقى عليها " الروح" لتبعث من جديد .

﴿ وقد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ ﴾ (٤)

والأرض تزيد بالموتى لأنهم يدفنون فى ترابها ولكن هذه الزيادة هى الأجساد التى أخذت من التراب واليه تعود أما الأنفس التى نزلت الأجساد بقوة " الروح "

---

(١)سورة يونس الآية ٦١. (٢) سورة هود الآية ٦ .

(٣) سورة النمل الآية ٧٥ . (٤) ق الأية ٤

كلماته وترتيب ظهورها بالتقديم والتأخير أو الإبطاء والإسراع على نحو يؤكد وحدانية الخالق المتصرف وحده دون شريك فى المخلوفات وعلمه المحيط

﴿ آلم ، غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾ (١)

ربما ناقشنا النبوءة بل النبؤتين الواردتين فى الآيات فيما بعد للدلالة على صحة النص القرآنى التى تؤكدها الوقائع التاريخية والظواهر الطبيعية ولكن الذى يعنينا هنا هو أن وقائع التاريخ المتمثلة فى الحرب بين الروم والفرس مدونة فى الكتاب الذى أشير إليه فى أول السورة ب ألف . لام .ميمم.

﴿ آلم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون ﴾ (٢)

إذن فالإنسان قد حضر إلى الدنيا ليتم إمتحانه وإن أدعى الإيمان فيجب إختباره بالفتن المسطورة فى الكتاب .

﴿ ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلاَّ فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ﴾ (٣)

والبراءة إتقان الصنع يعنى إخراج الصنعة فى أحسن صورة وأفضل شروط للدلالة على قدرة الصانع والذى يعنينا هنا هو أن كتابة " العلم " سابقة على خلق السماوات والأرض فالأشياء مكتوبة قبل خلقها .

وفى القيامة عندما تُجْلَى الحقائق سيظهر "كتاب الله " لكل الخلائق ويُقَدم إليهم قريبا منهم ليشهدوا بما فيه على أنفسهم .

---

(١) سورة الروم ١ـ ٥ .

(٢) سورة العنكبوت (١ ـ ٢) .

(٣) سورة الحديد الآية ٢٢.

﴿ ووضع الكتاب ﴾ (١) أى هيئ للإطلاع عليه .

﴿ فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مالهذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها﴾ (٢)

انظر لقد قالوا هنا فى الآخرة مشيرين إلى (هذا) الكتاب لأنه قد صار قريباً بعد أن كان يشار اليه فى الدنيا بذلك الكتاب فتأمل فى دقة القرآن التى لايستطاع وصفها !!

﴿ ووجدوا ما علموا حاضرا ﴾ أى تبرز أعمالهم من الكتاب وتحضر أمامهم ثم تمسك الأعمال بأصحابها حيث يلقى كل واحد جزاءه من عمله نفسه .

﴿ ولا يظلم ربك أحداً ﴾

ماعلاقة هذا القرآن بذلك الكتاب لاريب فيه ؟!

ربط القرآن بينه وبين الكتاب المبين إذ يقول

﴿ آلر تلك آيات الكتاب وقرأن مبين ﴾

﴿ طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين ﴾ (٣)

أنظر كيف بادل بين الترتيب فقدم وأخر ليدل على أنهما فى حقيقتهما شئ واحد لأنهما يعودان إلى أصل واحد هو علم الله الواحد .

القرآن جزء من الكتاب ولكنه الجزء الكاشف الذى أظهر الكتاب وأخرج مكتوباته المكنونة إلى نور الشهود .

والأمر هنا يشبه كنزا عظيما ملئ بالجواهر الثمينة ولكه مغلق على ما فيه فاراد مالكه أن يهب وليه الحميم أثمن جوهرة فى كنزه المخفى فاستقدمه وفتح الكنز ومد يده إليه بالجوهرة المقصودة فكانت تلك الهدية سبباً فى فتح الكنز كله والكشف عن جميع ما فيه هكذا صنع الله مع نبيه " محمد " صلى الله عليه وسلم لما

---

(١) سورة الكهف الآية ٤٩.   (٢) سورة الحجر ١

(٣) سورة النمل ١.

أحب أن يكشف عن نفسه فانزل إليه القرآن الذى فتح خزانة العلم الإلهى وأضاء محتواها . وهو ما أشارت إليه الآية ٣٧ من سورة يونس - نحن نكشف العلم الإلهى أو فتح الكتاب يستحيل أن يكون قد بدأ بنزول القرآن على " محمد "صلى الله عليه وسلم النبى العربى فى غار حراء على مقربة من مكة عندما بلغ الأربعين لأنه قد وُجِدَ جم غفير من الأنبياء قبل محمد "صلوات الله عليهم وسلامه جميعا" بل لقد عَلَّم الله آدم الاسماء كلها وهو أول إنسان ظهر على الأرض ومعنى تعليم الأسماء كلها هو الكشف عن محتويات الكتاب المبين وتمكين " آدم " عليه الصلاة والسلام من قراءة كلماته التى هى أسماء الاشياء حيث كانت مخفية فى غيب السماوات والأرض .

لابد إذن أن تكون هناك نزلة أخرى " للقرآن الكريم " قد وقعت فى بدء الخلق قبل آدم بل قبل الجن .

تلك النزلة التى تحققت فى ليلة اليوم السابع الذى هو يوم الدنيا هذه إذ بعد أن أتم الله خلق سبع سماوات طباقاً في يومين أكملا الأيام (= الأحقاب) الستة أنزل كتابه الحاوى لعلمه فى السموات فحملت كل سماء نصيبها من العلم حتى بلغ السماء الأولى التى هى الدنيا أى القريبة من الأرض فأوحى إلى نبيه الأمى (القران) الذى كان بمثابة الجوهرة الثمينة التى كشفت عن الكنز كله الذى توزعت جواهره الدفينة على كل السموات .

لقد تنورت السماوات والأرض بنور القران الذى نزل على محمد وهو (صلى الله عليه وسلم) نور فكان نور نزل على نور وإلى هذا أشارت آية النور و الآية الخامسة والثلاثين من سورة النور .

فنزول (١) القرآن على " محمد " صلى الله عليه وسلم فى غار حراء فى

---

(١)راجع الآيات ٩ -١٢من سورة فصلت والأمر يحتاج إلى تفصيل وتحليل يضيق عنه المقام الآن ويحتاج إلى دراسة مفصلة عن خلق السماوات والأرض وعلاقة " محمد " صلى الله عليه وسلم بالكائنات ودور الوحى وربما يسر الله بيان ذلك فيما بعد لكننا هنا نلقى نظرة عامة على القرآن وسياحة قصيرة فى بحوره لعلنا نتعرف على حقيقتة !!

مطلع القرن السابع الميلادى إنما كان هو النزول الثانى وهو بمثابة تذكرة للناس تعيد إلى قلوبهم ماسبق لهم أن إستمعوا إليه . يقول :

﴿ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى ﴾ (١)

﴿ فمالهم عن التذكرة معرضين ﴾ (٢)

﴿ كلآ إنه تذكرة ﴾ (٣)

ويقول ﴿ فذكر إنما أنت مذكر ﴾ (٤)

ولا نتذكر إلاّ ماقد سبق لنا العلم به ثم نسيناه لأن الذكر هو الخلاص من النسيان .

فماذا نتذكر ؟! القرآن القديم الذى سبق أن أستمعنا إليه فى فجر الدنيا وفهمناه بوضوح واستقر فى نفوسنا قبل أن ترتدى الأجساد وه لتخوض الإبتلاء .

﴿ ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون ﴾ (٥)

ماذايتذكرون ؟! وتأتى الأجابة بطريقة مدهشة فى الآية التالية ولكن لاينتبه لها إلا المتدبر الذي يديم التسآول ويتحفز لإلتقاط المعنى .

﴿ قرآنا عربياً غير ذى عوج لعلهم يتقون ﴾ (٦)

يقصد لعلهم يتذكرون بهذا القرآن الحاضر قرآنيا عربياً قديماً كان مفصلا لهم واضح المعانى ميسوراً غير عسير على أفهامهم مستقيم الطرق والألفاظ أمامهم لأنهم كانوا فى موقف الشهادة الحرة لم يدخلوا بعد فى فتنة الإبتلاء .

لعلهم إن استطاعوا أن يتذكروا يحمون أنفسهم من عذاب الله .

---

(١) سورة طة (٢ - ٣). (٢) المدثر الآية ٤٩.

(٣) المدثر الآية ٤٥. (٤) الغاشية الآية٢١.

(٥) سورة الزمر الآية ٢٧.

(٦) سورة الزمر الآية ٢٨ أنظر إلى قوله " أفغير الله أبتغى حكماً وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلاً " سورة الأنعام ١١٤ .

ولا شك أن ذلك يفرض لنا كياناً سابقا علىّ ولادتنا من الأرحام وهو أمر تتضافر الآيات على تأكيده ولكن المقام الآن لايسمح بتناوله ويفرض كذلك الإعتقاد بأن النبى " محمد " صلى الله عليه وسلم هو أول الكائنات وإلى ذلك أشار القرآن بوصفه " صلى الله عليه وسلم " بأنه ﴿ أول المسلمين ﴾ (١) ولن ندخل فى نقاش طويل ويكفى أن نذكر هنا أن العلم ينقسم إلى غيب وشهادة (٢) وبالطبع فلا شئ يغيب عن الله فإلى من يشير الإنقسام ؟! أن هذا التقسيم يشير إلى كائن أراد الله أن يجعله شاهداً فأخذ يكشف له علمه المخبؤ فى " الكتاب " شيئاً فشيئاً يوماً بعد يوم فالقسم الذى تم الكشف عنه صار مشهوداً له فهو موضع شهادته والقسم الذى لم يكشف عنه بعد هو الغيب . فمن هو هنا هذا الشاهد المرموق .

أليس هو النبى "محمد " صلى الله عليه وسلم الذى قال له ﴿ يا ايها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعيا إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴾ .

شاهدا على أى شئ أو شاهداً لأى شئ ؟

شاهداً لله على كل شئ ولابد أذن أن يكون هو أول من خلقه ليتمكن من الشهادة على كل شئ .

لانحتاج إلى المزيد من التفصيل هنا لأن هدفنا هو بيان معنى " الوحى " لذلك نقول إن الوحى هو ذكر من الله لخلقه وهو عمل إلهى يكون من شأنه أن ينير

---

(١) الأنعام الآية ١٣٦ .

(٢) لاحظ العلماء أن الحروف المقطعة تمثل نصف الحروف العربية فهل الإشارة فى هذا إلى إنقسام العلم الإلهى إلى قسمين . غيب لم يكشف بعد وشهادة بالنظر إلى أن الحروف هى التى تبنى العلم إذ منها تكون الكلمات ونصْفُ الحروف يشير من ثم إلى نصف العلم أى الجانب الذى أضئ أما النصف الآخر فلم يزل مظلما إذ يزل مظلما إذ ليس لدينا حروف تخصه بمعنى إننا لا نملك وسائل عليه ربما وعجائب القرآن لا تنفد ؟ !

الكتاب المبين فيكشف عما أودع فيه من علم الله فهو بمثابة إضاءة للذاكرة الإلهية .

وقد صرح الله بتسمية الوحى ذكراً فقال ﴿ أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ﴾ (١)

قال ذلك على لسان نوح ، وعلى لسان هود عليهما الصلاة والسلام .

أى هو إلتفات من الله إلى خلقه ويتم هذا فى قلب النبى الذى يكون بمثابة سفينة ينزل عليها " الروح " فيضىء بنوره كاشفا الغيب فتستبين مصائر الخلائق المسطورة فى الكتاب المبين .

ويقول ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ (٢) والذكر هنا هو الوحى الملقى إلى محمد " صلى الله عليه وسلم " يعنى " القرآن " .

وقال على لسان الكافرين ﴿ وقالوا يا ايها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾ (٣)

ويقول ﴿ فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك فى ضلال مبين ﴾ (٤)

لأنه عندما يذكرهم يتبين فى نور الوحى سوء مصيرهم الذى ينتظرهم .

والآيات كثيرة متضافرة ولكن نكتفى بما قدمنا ولنتأمل فى قوله أخيراً

﴿ وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلاَّ ذكر للعالمين ﴾ (٥)

العالمين هم بنو الإنسان وسماهم عالمين لأن كل واحد منهم يعد عالماً قائما

---

(١) سورة الأعراف الآية ٦٣، ٦٥ .
(٢) سورة الحجر الآية ٩.
(٣) الحجر الآية ٦
(٤) سورة الزمر الآية ٢٢ .
(٥) سورة يوسف الآية ١٠٤

بذاته (١) .

ومعنى هذا أن القرآن هو تذكر من الله للبشرية كلها أى التفات إليهم وتنبيه لهم وتذكير بكلامه القديم الذى سبق لهم أن استمعوا إليه واستقامت لهم ألفاظه ومعانيه واستقر فى نفوسهم وبه يحاكمهم الله (٢) .

بعد هذه الجولة التى سبحنا فيها مع السياق القرآنى تقودنا الحروف المقطعة فى أوائل بعض السور والتى لم تزل تحمل الكثير من الأسرار ولكن المقام يضيق ونحن لا نقدم تفسيراً بل محاوله للتعرف على النص لنصل من خلاله هو نفسه إلى حقيقته .

بعد هذه السباحة السريعة فى بحر القرآن العميق هل يستطيع الإنسان أن يصنف القرآن طبقاً لمضمونه ؟!

إن أسفار العهد القديم بالتحليل الموضوعى للنص ليست أكثر من سيرة شعبية تقص تاريخ بنى إسرائيل من بدايتهم كعائلة للنبى " يعقوب " حتى تكوينهم لدولة أو مملكة على يد الملك " داود " ومن بعده إبنه "سليمان " عليهم الصلاة والسلام ثم التفكك والإنهيار والصراع والحروب . إنها مجموعة من الكتب التى تتناول موضوعاً تاريخياً وتمتلئ بالتفاصيل الدقيقة التافهة وأيضاً بالخرافات والأكاذيب والأهم من كل ذلك أنها مجهولة المؤلف فلم تجمع إلاّ من الألسنة فى قرون وظلت مضطربة السياق غامضة الكلمات حتى تم الاتفاق على الصورة الموجودة عليها الآن فى القرن العاشر الميلادى يعنى بعد ألفى سنة من " موسى " النبى صلى الله عليه وسلم الذى تنسب إليه الأسفار الخمسة الأولى وأيا كانت التفاصيل التى لاتهمنا الآن ولكننا بكل موضوعية لانملك عقلاً إلاّ أن نصنفها كسيرة شعبية بإستثناء بعض الأسفار مثل المزامير أو الأمثال فإنها كتب أشعار دينية وحكم

---

(١) راجع قول الله على لسان لوط فى سورة الشعراء " أتاتون الذكران من العالمين " الآية ١٦٥ .

(٢) أنظر قوله " وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله " البقرة ، فالآية تشير إلى كلام الله المودع فى النفوس وسواء أبدينا فى الدنيا آمنا عرفنا الحقيقة أو أخفينا إن كفرنا وضللنا فإنه سيكون يوم القيامة مقياس الحساب تأمل فى قوله "به" .

أن هذا هو السر الذى يجعل القرآن هو " الذكر " المفضل لأهل العلم من الأولياء الذين لايملون من تلاوته ولا يكف هو عن إعطائهم من فيض كرمه المزيد من المعرفة .

فإذا كنا لم نستطع أن نصنف القرآن بشرياً بالنسبة لأسلوبه الذى هو لانثر ولا شعر فإننا أيضا لانستطيع أن نصنفه طبقاً لمضمونه إلا أن نقول أنه التعبير الأعظم عن الذات الإلهية وقد أنزله الله تعريفا بنفسه هداية للناس .

(٣) نظرة إلى فواتح السور

ربما يحسن أن نلقى نظرة أخيرة على فواتح السور مع بيان مراحل تسجيل العلم الإلهى وهى نظرة توضح بإذن الله بعض غوامض التنزيل ولاشك أن الأمر يحتاج دراسة مفصلة ألاَّ أننا نكتفى بالقدر الذى يسمح به المقام ولعل الله يجعل بعد ذلك خيراً كثيراً

.... كان الله ولا شئ معه غيباً تاماً أو كنزا مخفياً تستحيل معرفته فأحب أن يُعرف فإنبعث من هذا الحب ذلك الكائن الذى أنيطت به المعرفة .

أنه " الشاهد " للتجلى المعاين لما يُكشف عنه .... " محمد " صلى الله عليه وسلم وهو فى هذا المقام " روح الله " أى الشىء الذى يُعرف به الله هو واسطة المعرفة أو وسيلتها .

ولم يكن " العلم " حينذاك قد كُتب أو تم تسجيله وهذا هو معنى " النبى الأمى " إذ كان نبياً قبل أن يكون هناك كتاب أو أداة كتابة وهى الحقيقة التى رمز الله إليها فى الدنيا بجعله " محمد بن عبد الله بن عبد المطلب " النبى العربى أمياً لايقرأ ولا يكتب .

وإلى هذا المقام الذى سبق كتابة العلم الإلهى أشار الله بفاتحة سورة القلم **ن** إذ النون دائرة فارغة لاتحوى شيئاً إلا نقطة واحدة تشير إلى محمد " صلى الله عليه وسلم " النبى الأمى الذى أُخرج من الغيب ليكشف الله عن نفسه وفراغ الدائرة يرمز إلى العلم الآلهى قبل أن يُسطر فى الكتاب . لقد كشف محمد " صلى الله عليه وسلم " بخروجه من قبضة الغيب عن العلم الإلهى فكان خروجه بمثابة المصباح الذى أضاء الظلام الذى كانت تغرق فيه الكائنات حينذاك فى بطن الغيب كما كان " يونس " فى بطن النون (= الحوت) وهذا هو سر الإشارة فى آية بن متى (عليه الصلاة والسلام) .

ومن هنا سُمى (محمد) الكاشف ونُعت بأنه مصباح الظلام . ومن هذه النقطة خرج " القلم " الذى كتب الله به العلم فسجله وكان هذا التسجيل هو اللوح

المحفوظ .أنه أول كتاب على وجه الإطلاق ومن ثم فهو " الأم " التى ولدت كل الكتب ولذلك سمى فى القرآن بأم الكتاب وهو المرجع الأول للعلم .

ولما كان " القلم " الذى خلقه الله هو الوسيلة التى سُجل بها العلم فهو إذن صاحب الفضل الأول على الإنسان لأن به تعلم الإنسان ما لم يكن يعلمه عن نفسه إذ كان وسيلة إخراج العلم من الغيب . وإلى هذا اللوح المحفوظ أو أم الكتاب اشارت " ص " ، " ق " فى بدء السورتين المسميتين بهما ووجه الإشارة أن الحروف المكتوبة هى رسوم تُعيِّنْ الأصوات أى أنها تجعل الأصوات (= الحروف) مرئية مدركة بالعين وهى أى الحروف المصدر الأول والمرجع الأصيل للعلم فهى التى تُقَيِّدّ الأصوات وتحصرها فى شكل محدد إذ أن الأصوات موجات مسموعة مبهمة أو غائمة .

والحروف تبنى الكلمات ومن ثم فهى ينبوع العلم فلا علم بدون كلمات وكذلك كان اللوح المحفوظ المكتوب بالقلم الإلهى فهو الذى حدد العلم الإلهى وأخرجه من خفاء الغيب المطلق وهو من ثم أصل كل علم يحصل عليه الخلق ولهذا التشابه بين الحروف واللوح المحفوظ كانت هذه الحروف المنفردة المقطعة تومئ إلى اللوح المحفوظ . لقد تحدد العلم فى أول صورة فإشير إليه بحرف واحد إذ هو الحرف أول طريق العلم .

واتجهت الإرادة الإلهية إلى خلق السماوات والأرض لتكون مجالاً يتحقق فيه العلم المسجل ..... فخلق الله الارض و أنشأ فيها كل الكائنات فى أربعة أيام أو أحقاب زمنية لايعلم طولها إلاَّ الله كما فُصّلت سورة " فُصّلت " وبنى سبع سموات متراكبة واحدة فوق أخرى واستدعى من الأرض " الأنفس " فيما يطلق عليه القرآن " النشأة الأولى " فأسكنهن فى السماوات كلاًّ فى مقام معلوم وترتيب حكيم فكان " آدم " مثلاً فى السماء الأولى " وعيسى بن مريم " فى الثانية كما رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى المعراج .

وأنزل اللوح المحفوظ الجامع للعلم إلى السماوات موحياً إلى النبى فى كل سماءَ قدراً منه فصار ذلك القدر هو " الأمر " المخصوص بكل طبقة من الطبقات

السبع فأصبحت كل سماء تحمل فى باطنها كتابها (= أمرها) الخاص الذى يحتوى على مجموع الإرادة الإلهية المُناط بها تحقيقها .

وتُكوّن الكلمات الإلهية الموزعة على السماوات السبع ما يسمى بالكتاب المبين ومن هنا نعلم أن الكتاب المبين هو العلم الإلهى الذى نزل من اللوح المحفوظ إلى السماوات بعد نهاية الأيام (الاحقاب) الستة .

إذن الكتاب المبين هو نسخة أو صورة من اللوح المحفوظ انطبعت فى السماوات يعنى الصورة السماوية للعلم الإلهى . وإلى ذلك الكتاب أشارت الفواتح : آلم وألمر وطسم وطس ويس ... فى أوائل السور .

لقد تهيأت الأرض الآن لبدء الدنيا واستعدت " الأنفس " على الصراط للدخول فى الإمتحان فأنزل الله على مصطفاه " القرآن " وكان هذا هو النزول الأول الذى أنار السماوات والأرض وأستمعت الانفس إليه وفهمته وهى حرة فى مقام االشهادة حيث كان بالنسبة إليها مستقيم الألفاظ واضح المعانى وانطبع فى أعماقها فأصبح صوت الله فيها وهو أصل الضمير الذى يحاكم الإنسان من داخل نفسه .

ذلك التنزيل القديم هو القرآن ذى الذكر والذى وصُف بأنه غير ذى عوج والمطلوب منا تذكره فى حياتنا المشهودة الآن داخل أجسامنا هذه .

وبالطبع فإن القرآن كان جزءاً من اللوح المحفوظ ....

وعاء العلم الإلهى بل هو الجزء الأهم إذ هو بمثابة المدخل أو المقدمة التى تضم الفهرس العام الذى يعين على رؤية الصورة الشاملة للكتاب ويساعد القارئ على السير بين الفصول والأبواب وكذلك صار القرآن بالنسبة للكتاب المبين .

ولمقام القرآن المجيد فى اللوح المحفوظ أشارت " حم " فى أوائل غافر وفصلت والشورى والدخان والجاثية والأحقاف إذن " حم " إسم للقرآن فى اللوح المحفوظ وفى الكتاب المبين وهى تذكر الإنسان بنزوله الأول فى بدء الدنيا عندما كنا نحن البشر على الصراط ننتظر دورنا فى الإبتلاء .

﴿ حم ، تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ﴾ (١)

﴿ حم ، تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآناً عربيا لقوم يعلمون ﴾ (٢)

أظن فى ضوء ما قدمنا لاتحتاج الآيات إلى تفسير .

﴿ حم، والكتاب المبين ، إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ، أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين ﴾ (٣)

﴿ حم، تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾ (٤)

﴿ حم، عسق ، كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله االعزيز الحكيم ﴾ (٥)

والمعنى أن هذه الحروف تشير إلى الكلمات المسطورة فى الكتاب المبين والتى كانت من قبل فى اللوح المحفوظ ينزلها الله على الأنبياء من خلقه " محمد " صلى الله عليه وسلم ومن سبقه فى هذه الدنيا .

وسر مجيئها على هذا النحو المقطع أى نطقها كأصوات منفصلة لم تدخل بعد فى ألفاظ هو الإشارة إلى أن الوحى الإلهى هو أصل العلم الذى يناله الإنسان لان هذه الحروف هى أصل العلم إذ منها تُبنى الكلمات التى يُكْتب بها العلم فلا علم للإنسان إلاّ بإذن الله الذى أحب أن يعلمه الأنبياء إنما يتلقون العلم من الله بالوحى الذى يكشف بنوره عن المسطور المستور فى خزانه العلم الإلهى .

إذن فليعلم الإنسان أنه كلمة من كلمات الله كانت فى الكتاب مسطورة وأن الله بالوحى إلى أنبيائه يريد أن يعِّرفِ الإنسان بنفسه فيعرف ربه ـ

﴿ قل يا ايها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل ﴾ (٦)

---

(١) سورة غافر ١-٢ .   (٢) فصلت الآية ١-٣ .

(٣) سورة الزخرف الآية ١-٤ .   (٤) الآية ١-٢ من سورة الجاثية والأحقاف

(٥) سورة الشورى الآية ١-٣.   (٦) سورة يونس الآية ١٠٨.

(٤) من عجائب الألفاظ والحروف

عندما يستغرق الإنسان فى قراءة القرآن فإنه ينسى أن هذا النص قد كتب فى مطلع القرن السابع الميلادى وأنه ينفصل عن زمننا المعاصر بما يقرب من ألف وأربعمائة سنة تغير خلالها وجه الأرض تغيرات هائلة مئات المرات بحيث لو افترضنا أن أحد الذين عاصروا تنزيل القرآن قد بُعث إلى عصرنا كما بعث أهل الكهف بعد ثلاثمائة سنة من نومهم فإنه لن يتعرف على شئ مما يرى فى الدنيا اللهم إلاّ الظواهر الطبيعية مثل السحاب والمطر والنجوم والشجر والدواب والنباتات وملامح وجه الإنسان والقرآن الذى بقى على حاله محتفظاً بجماله منذ إستمع إليه مع كفار قريش عند الكعبة .

لقد ظل " القرآن " الكريم معاصراً يقرأه الناس ويستمعون بتلاوته ويستهدون بإرشاده طوال كل العصور التى مرت على الأرض ورغم كل الأحوال التى تقلبت علىوجهها بحيث يمكننا أن نؤكد أن القرآن الكريم هو أوسع الكتب إنتشاراً فى تاريخ البشرية وأنه يوم من الأيام منذ ألف وأربعمائة عام الاّ ووجم غفير من البشر فى كل مكان لايمر يتلون القرآن أو يستمتعون إليه أو يتدبرون فى آياته .

وحقا تكون " مملكة " القرآن هى التى لاتغيب عنها الشمس وسوف يبقى سلطانها حتى يأذن الله بدمار الأرض عند مجئ الساعة وهو ما يلمح إلى أن القرآن كان السر وراء حياة الأرض وعند رفعه قبيل نهاية الدنيا يكون ذلك إيذانا بخرابها .

والسر فى إحتفاظ القرآن بمعاصرته لكل الأجيال البشرية وحيويته الخارقة هو أنه يجيب على الأسئلة الجوهرية التى تثور فى عقل الإنسان منذ كانت الحياة وأنه يمد الإنسان بالإرشاد الحكيم فى كل ما يهمه من شئون حياته وأنه يفعل هذا فى أداء فنى باهر يجعل مجرد قراءته متعة عقلية ولذة وجدانية ونوراً يبدد الظلمات ويأخذ بيد الإنسان فى طريق السعادة المنشودة .

منذ بدأ وعى الإنسان بالحياة ثارت فى قلبه الأسئلة عن نشأة الكون ومصيره

وأين يذهب الموتى الذين غابوا وما الغاية من الحياة كل هذه الأسئلة تجد إجاباتها العميقة الرصينة التى تقنع العقل وتطمئن الوجدان وتضبط السلوك فى الآيات القرآنية التىتنفذ إلى القلب فى يسر واقتدار .

وفى كل اللحظات الحرجة والأزمات الجوهرية التى يتعرض لها الإنسان فى تجاربه الذاتية التى يفرضها قانون الإبتلاء العام فى هذه الساعات العصيبة يجد قارئ القرآن طريق الفرج على حين فجاة وحيث لا يحتسب ربما قرأه فى آية قرآنية على لافتة أو فى لوحة على جدار أو تناهت إلى سمعه من إنسان تمتم بها وسط الزحام أو ألتقطتها أذنه من مذياع فى مقهى أو انطلق صوته من بيت قريب .

هكذا يرتبط قراء القرآن بنور إرشاده فى تجاربهم الذاتية أما إرشاد القرآن العام المتمثل فى قيمه الخلقيه ومثله الإنسانية العليا ونصائحه فى كل شئون الحياة...... الزواج والعمل والإنفاق والصداقة وتربية الأولاد كل ذلك يمثل رابطة قوية لاتضعف تجذب الإنسان إلى المصحف الشريف الذى يضم بين دفتيه نور السماوات والأرض .

والقرآن عندما يبحث المسائل ويجيب على الأسئلة ويعطى إرشاده فإنه يؤدى كل ذلك بإقتدار فنى معجز يجعله المثل الاعلى الذى يجب على الفنان الأديب أن يضعه نصب عينيه . وسنحاول الآن إستكشاف ملامح الجمال فى الصياغة القرآنية .

تبادرنا بساطة الألفاظ القرآنية وسلاستها فهو لا يستعمل الفاظاً غريبة ولا يتقعر طلباً للتعاظم الزائف والفخامة الكاذبة التى يحاول الادباء إيهام القارئ بها أما القرآن فيستعمل الفاظاً مألوفة قريبة المأخذ لايضطر القارئ إلى إستعمال معجم أو قاموس وهو أمر مدهش حقا لنص يعود إلى الوراء ألف وأربعمائة سنة . إننا نضطر غالباً لمراجعة القواميس اللغوية أو المعاجم عندما نقرأ لبعض الكتاب المعاصرين أو قريبى العهد بنا فما بالك بالقدماء وهذه إحدى أعاجيب القرآن الذى يبدو رائق المعانى مفهوماً لكل الطبقات الثقافية حتى الرجل الأمى البسيط يستطيع

فى سهولة أن يدرك مغزى الآيات ومراميها بمجرد أن يستمع إليها من قارئ يحسن التلاوة .

لكن هذه البساطة التى جعلته فى متناول العوام لم تلق به إلى الركاكة أو تقلل من دقته الهائلة التى ضربنا لها مثلاً فى إستخدام أداتى الإشارة هذا وذلك ولنتامل الآن أمثلة أخرى .

عندما تمثل " الروح " إلى " مريم " بشراً سوياً وأقتحم عليها خلوتها التى ضربتها حول نفسها وأخبرها أنه " رسول الله " وقد جاءها ليهب لها غلاماً زكيا وهى فتاة عذراء لم تتزوج بعد فأرعبها كلامه وخافت على نفسها منه وأحبت أن تدفع عن نفسها تهمة الزنا فقال الله علىلسانها ﴿ أنىَّ يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغياً ﴾ (١) استعمل لفظ " المس " للتعبير عن المعاشرة الجنسية والمس هو أقل مباشرة أو تناول أنه يعنى اللمس الخفيف المؤقت السريع الذى لايستغرق أكثر من لحظة فاستعمل فى مقام النفى اللفظ الذى يدل على أقل درجة من المباشرة لتأكيد طهارتها ونزاهتها عن الزنا .

لم يقل مثل ولم يلمسنى أو لم يلامسنى أو لم يعاشرنى والإنجيل على سبيل المثال للمقارنة يقول " ولم تعرف رجلاً "إستعمل اقوى فعل فى الدلالة على " المعاشرة " وهو " المعرفة " - والمس فعل من طرف واحد فنفت عن نفسها الإشتهاء والرغبة إذ أن فعل من جانب " الماس " وهو الرجل فى هذه الحالة .

بينما عندما أراد بيان نواقض الوضوء قال " أو لامستم النساء " (٢) فعبر عن المعاشرة الجنسية أو مقدماتها بلفظ " الملامسة " وهو على صيغة " المفاعلة " من لفظ اللمس " والمفاعلة " تقتضى الفعل المتبادل من الطرفين هما الذكر والأنثى أو الرجل وامرأته فى حالتنا هذه والفعل المتبادل يعنى تبادل التأثير وأشار بهذا إلى الاشتهاء والممارسة الجنسية الكاملة أو على الأقل مقدمتها كسبب لنقض الوضوء . لم يقل مثلاً أو لمستم النساء أو مسستم النساء لأن اللمس أو المس ضعيف ومن

---

(١) سورة مريم (٢) سورة النساء الآية ٤٣.

طرف واحد فليس المقصود فى الآية تماس البشرة بل الممارسة الجنسية .

بل إنه ذهب إلى أبعد من هذا إثباتاً لبراءتها أى مريم من الزنا وبرهانا على أنه أى القرآن من لدن حكيم خبير قدير فقال على لسانها فى معرض دفاعها عن نفسها فى نفس الآية ﴿ ولم أك بغياً ﴾ (١) لم يقل " ولم أكن بغياً " وهو صحيح معبر عن الحق الذى يريد الأفصاح عنه .

حذف حرف ال " ن " من فعل الكينونة اكن فصار " أك " فى إشارة باهرة إلى أن الأشياء إنما تصبح حاضرة بقول الله " كن " الذى يتصل فيه الكاف بالنون ولاحضور إلاّ بذلك لأن الأشياء لاتصدر إلاّ عن واحدٌ هو الله القائل لها " كن " .

كره الله تعالى وهو فى مقام الحديث عن شبهة وصم " مريم " العذراء بالزنا كره أن يصل النون بالكاف حتى لاتكوّن معها فعل الكينونة .

فى هذا المقام البغيض إلى نفسه من شدة حبه للعذراء البتول تأكيداً لبراءتها رافض أن يعطى الشبهة حتى فى مقام نفيها صورة الكيان المتحقق بلفظ " كن " فقال فى إقتدار لا يستطيعه غيره " ولم أك " حتى لايدع أى إحتمال لوقوعها فى تلك الفاحشة البشعة كأنه قال بحذف النون لن تجد أثراً فى " الحق " الذى هو شهادة الله لتلك الشبهة المعدومة التى لم تشم حتى ريح الوجود .

فى المحراب الصامت وسط سحب البخور العطرة التى تتصاعد من المجامر فتثير الأشواق من اعماق القلب قام " زكريا " يدعو ربه فيما سماه " القرآن " نداءً

(١) سورة مريم الآية ٩ .

خفياً طالبا الوريث الذى يحمل عنه الأمانه ليبقى فى الأمة " الرسالة " ويحفظ مجد الله فى الشعب وختم " زكريا " دعاءه متملقا ربه قائلا ﴿ ولم أكن بدعائك رب شقياً ﴾ (١) يقصد جديرٌ بى ألاّ شقى بعد دعائك يا إلهى لأنك كريم قريب تجيب المضطر وتكشف السوء فأنا على يقينى من أنك قد إستمعت وأنك قد أجبت لأننى أشعر بالسعادة ويزايلنى الشقاء بمجرد أن أدعوك وفى الحقيقة فإن الدعاء دعاءك أنت لأنك سبحانك الذى دعوتنى لأقف بين يديك وهذا إيذانٌ منك بأنك قد لبيت النداء قبل أن ينطق به لسانى لأنك أنت الذى وضعته بقلبى وعَلمْته فى نفسى قبل أن تخلقنى فهو دعاؤك الذى نطق به لسانى ولابد من إجابته لأن فعلك بالإجابة لابد أن يؤكد صدق قولك فأنت الداعى الحقيقى الذى تكلم بلسانى فانظر إلى السر فى نسبة الدعاء إلى الله مع أن الداعى هو العبد " زكريا " صلى الله عليه وسلم . تأمل فى هذا الإيجاز المعجز وأشهدكم تكلمنا لنتعرف على اسرار حرف واحد هو الكاف الذى نسب الدعاء إلى المدعو وليس إلى الداعى .

وعندما تحققت الإجابة وأحاطت به الملائكة تزف إليه بشرى الغلام الموعود الذى لم يجعل الله له من قبل سمياً وقف زكريا مذهولاً من سرعة الإجابة مدهوشاً بعظمة الهبة ماخوذاً بكرم الله يمتلأ قلبه بالشكر والإمتنان الذى اتخذ هيئة التعجب من بديع صنع الله فتساءل من أين يأتيه الغلام وقد طعنته الشيخوخة وظلت أمرأته العجوز عقيما منذ زواجهما وأحب الله أن يزيده ويزيدنا من بعده علماً فقال له مجيباً على تساءله ﴿ وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا ﴾ (٢) يعنى لاتتعجب من تخليق مولود من شيخ عقيم وهن عظمه وأشتعل الشيب فى شعره ومن امرأة عاقر يئست من المحيض إلى غير رجعة لأننى أنا الخالق القدير الذى لايعجزنى شئ وقد

(١) سورة مريم يمكن الرجوع إلى تفاصيل القصة فى رواية " كلمة من الله " بقلم الكاتب وهى رواية تقص حياة " المسيح عيسى بن مريم " فى قالب فنى وفى سياق عرض تاريخى شامل وهى تتناول حياة " زكريا " "ويحيى " " ومريم " (عليهم صلوات الله وسلامه) بالإضافة طبعاً إلى " المسيح عيسى بن مريم " عليه وعلى نبينا " محمد " صلوات الله وسلامه

(٢) سورة الزمر الآية السادسة .

صنعتك من قبل فى أيام الخلق الأولى من تراب الأرض بلا أب ولا أم بل أنبتك من الطين كما تنبت الأشجار لم يحملك والدٌ فى صلبه ولا والدة فى رحمها ولم تكن قبل تلك النشاة الأولى كياناً يمكن أن يشار إليه إذ كنت فى الغيب نسياً منسياً لايذكرك أحد غارقاً فى الظلام لاينتبه إليك أحد .

هل يبقى فى قلب " زكريا " صلى الله عليه وسلم شئ من التعجب بعد هذا البيان وهل لنا أن نتوهم إستحالة شئ على قدرة الله الكبير المتعالَ . بالطبع لا يبقى أثر للتعجب ولا للوهم . فتأمل كيف أشار إلى كل هذا العلم بلفظ واحد هو " قبل " .وانظر الآن كيف لم يقل وهو يصف كيان " زكريا " فى الغيب قبل النشاة الأولى لم يقل " لم تكن " بل قال " لم تك " حاذفاً " النون " من فعل الكيان حارماً الكاف من وصلها ليؤكد انعدام " زكريا " فى النيب واستحالة معرفته فلم يعط وجوده فى مقام النفى لفظ " كن " الذى يكون به الحضور والمعرفة .

وهل كان يمكن لمخلوق أن يرى " يونس بن متى " عليه الصلاة والسلام وهو محبوس فى بطن " النون " أى فى بطن الحوت الذى كان فى بطن البحر الواقع فىبطن الأرض ثلاث ظلمات وكذلك كان الإنسان فى خلقه القديم وكذلك يكون الجنين فى بطن أمه قبل أن يأتيها المخاض .

ويقول فى موضع أخر ﴿ خلقكم من نفس واحدة ﴾

﴿ ثم جعل منها زوجها ﴾

﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ﴾

﴿ يخلقكم فى بطون أمهاتكم ﴾

﴿ خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ﴾

﴿ ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلاَّ هو فأنى تصرفون ﴾ (١)

---

(١) سورة الزمر الآية السادسة .

فانظر أولاً كيف أشار بصيغة الماضى " خلقكم " إلى الخلق الأول القديم الذى خرجنا فيه من الأرض مباشرة بعد أن مسح الله بيده ظهر " آدم " النفس الواحدة الذى كان حين ذاك لم يزل منجدلاً فى طينته ونثرنا فى الأرض كما ينثر الزراع بذور النبات فأنبتنا هناك من الأرض حيث أخذنا صوراً عديدة تشكلنا فيها طوراً بعد طور أزماناً طويلة لايعلمها إلاّ الذى خلقنا .

وبعد أن صعدنا من الصور الأخرى إلى صورة " آدم " الذى أحذت بذورنا من ظهره حينئذ أخرج الله من " آدم " حواء زوجه و لذلك فصل بين خلقنا وبين خلق زوج آدم بحرف " ثم " الذى يفيد التعاقب مع التراخى أى يشير إلى مرور زمن محسوس والشئ الهام الذى يجب الإنتباه إليه هو أننا لم نكن فى حاجة إلى زواج آدم وحواء لكى نخلق إذ قد خلقنا قبلها كما افاد الترتيب المحكم .

ثم نادانا ربنا من الأرض عندما أمرها هى والسماء أن تحضرانا بين يديه (١) فاستمعنا نحن إلى النداء ولبينا طائعين فاخذنا ونثرنا فى السماوات السبع فترتبت أو نزلت الأنفس فى سبع طبقات آدم فى السماء الأولى وعيسى بن مريم ويحيى بن زكريا فى الثانية ويوسف فى الثالثة وهكذا كما رأى النبى فى معراجه الأقداس .

ثم كانت فتنة "آدم " فى الجنة مع أمراته " حواء " التىأنتهت بنزوله إلى الأرض وخروجنا نحن البشر أيضاً من الجنة إذ نزلنا معه محمولين فى صلبه حيث كنا ضمن " الكلمات " التى تلقاها من ربه .

﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ﴾ لأن هذه الأنعام ضرورية لحياتنا على الأرض وهى مخازن " الروح " يعنى المستودعات التى يحفظ الله فيها سر الحياة كما أشارت آية البقرة فى السورة التىتسمت بها .

وهاهو آدم قد نزل على الأرض يحمل البشرية فى ظهره وبالجماع تخرج الذرية من صلب الرجل إلى رحم المراة حتى يأتى أوان الولادة فى خلق حاضر مشهود بعد الخلق القديم .

---

(١) راجع الآيات (٩- ١٢) من سورة فصلت .

﴿ يخلقكم فى بطون أمهاتكم ﴾

ههنا يتحدث بصيغة الحاضر مخاطباً البشرية بعد أن قال قبل قليل فى نفس الآية " خلقكم " بضيغة الماضى عاد ليقول بعد سطر واحد " يخلقكم فى بطون أمهاتكم " وهو الخلق المشهود فى الأرحام ومعنى هذا السياق أنّ خلقنا الحاضر هو خلق آخر بعد خلق قديم وهو ماصرح به لمن ينتبه ﴿ خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ﴾

يعنى خلقاً مؤكداً مشهوداً من بعد خلق قديم خفى منسى كنتم فيه داخل ثلاثة أحجبة تخفيكم .

ولكن القرآن حمَّال أوجه أى أن الفاظه تحتمل مع التدبر العميق وجوهاً عديدة من الفهم وذلك لأنه يستعمل الفاظاً قليلة جداً للتعبير عن معانى واسعة وعميقة ولذلك فهم البعض من قوله ﴿ خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ﴾ فهموا أنه يقصد مرحلة بعد أخرى فى تطور مستمر يتم داخل ثلاثة أغلفة فى بطن الأم الحامل سواء كانت هذه الظلمات أى الأغلفة أو الأحجبة هى السائل الذى يحيط بالجنين داخل الرحم والأغلفة التى تحيط به وجدار الرحم نفسه أو هى ظلمة الرحم وظلمة البطن ثم ظلمة جسد المرأة وأياً ما كان الأمر فإن الألفاظ دقيقة محددة تشير إلى حقائق عميقة وواضحة بالنسبة للمتكلم سبحانه وتعالى وقادرة على إثارة التأمل العميق فى عقل القارئ المتدبر .

والصورة الشاملة التى رسمنا ملامحها لكى نفهم ترتيب الجمل فى آية واحدة من سورة الزمر إشتققناها من سور كثيرة خاصة (البقرة والأعراف والأنعام والحجر ومريم والمؤمنون وص والزمر وفصلت والإنفطار) (١) وهى السور التى تناولت فى وضوح وتفصيل قصة الخلق بالإضافة إلى إشارات وتلويحات متناثرة بين

---

(١) تفصيل قصة خلق السماوات والأرض وظهور الإنسان يحتاج إلى دراسة كبيرة تجمع شتات الآيات فى نسق واحد يزيل الغموض ويعمق الفهم ولكننا الآن فى جولة نسبح فى بحر القرآن محاولين فقط القاء نظرة متعمقة .

أمواج الآيات التى يضمها هذا البحر العميق . كلها تتضافر لتكون صورة رائعة لانحصل عليها إلاّ بالتأمل العميق والتدبر الطويل فى آيات القرآن وكلماته بل وحروفه .

إن هذا يثبت أن القرآن الذى يضمه المصحف بين دفتيه كائن واحد رغم أن أياته قد نزلت منجمة خلال ثلاث وعشرين سنة فى ظروف شديدة التباين أثناء حياة حافلة بالتجارب الهائلة فبعض الآيات نزلت أثناء المعارك وأخرى أثناء السفر وأحياناً والرسول صلى الله عليه وسلم يدخل فى الصلاة وربما وهو يستعد للقاء ضيوفه أو يتهيأ للنوم ورغم كل ذلك يكوّن القرآن نصاً واحداً متكاملاً ينير بعضه بعضاً وترتبط حروفه وألفاظه وعباراته وآياته وسوره بروابط ظاهرة وخفية كأنها الخلايا الحية فى كائن جميل حى لايموت .

لا شئ فيه بلا معنى حتى لو كان مجرد إضافة حرف أو حذفه !!

يقول تعالى ﴿ والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ (١)

لقد توقف الأستاذ / سعيد النورسى (٢) أمام معنى حرف اللام هنا فى كلمة " لمستقر لها " فخرج بكثير من المعانى التى يمكننا أن ننسقها ونطورها على النحو الآتى :

اللام تشير إلى الغاية أو الهدف بمعنى " إلى " ويكون المعنى المقصود من الآية هو أن الشمس تواصل الحركة إلى أن تصل إلى موضع أو زمان تستقر عنده وتتوقف عن الحركة فالشمس إذن فى حركة دائبة تسعى إلى الإستقرار .

وعندما تستقر الشمس وتتوقف عن الحركة فإن نظام المجموعة الشمسية وهو القائم على الأتزان بين قوة الجاذبية وقوة الطرد المركزى سوف يكف أيضا عن العمل ومن ثم تتغلب قوة الجاذبية المتولدة من كتلة الشمس فتشد كواكب وأقمار

(١) سورة يس الآية ٣٨ .

(٢) الكلمة الخامسة والعشرين من كتاب الكلمات ص ٤٥٤ .

المجموعة إلى المركز أى إلى الشمس وحينئذ تتناثر الكواكب متبعثرة فى الفضاء وترتطم الأرض بواحد منها وتحدث " القارعة " وبالطبع ستفقد الشمس نورها وتتكور أى تلتف حول نفسها لفاً سريعاً هائلاً جاذبة مجموعتها معها إلى الهاوية .

إننا نتحدث هنا عن نهاية الكون المشهود والقيامة حيث تتكور الشمس وتنكدر النجوم وتزول الجبال هكذا أشار حرف " اللام " إلى نهاية العالم التى عندها تستقر الشمس وتفقد حركتها وكيانها كنجم .

ومن هنا نفهم أن سر بقاء الكون وانتظامه هو قوة أعطيت له وتولدت منها حركة جميع الأجسام فإذا سُلبت تلك القوة توقفت الحركة وتهاوى بناء الكون . هذا إن فهمنا " اللام " بمعنى " إلى " .

والحركة المنسوبة للشمس والمُعبر عنها بكلمة " تجرى " قد فهمها الأقدمون على أنها الحركة الظاهرية الملحوظة فى كل مكان على الأرض من الشرق فى الصباح الباكر إلى الغرب مع آخر ضوء يصل من الشمس إلى تلك البقعة من الأرض قبل أن تغيب وراء ستار الليل الذى يرخى سدوله حتى الفجر حين تأتى الشمس مرة أخرى قادمة من الشرق عند الأفق وهى الحركة الظاهرية المدهشة التى حيَّرت ألباب القدماء وجعلتهم يتصورون الشمس ككائن هائل يركب سفينة غير مشهودة بالعين يمخر بها عباب بحر السماء كل يوم من الشرق إلى الغرب وعبده المصريون القدماء متوهمين أنه الإله وأسموه " رع " .

ولكننا الآن نفهم أن الشمس " تجرى " فعلاً أى أنها تتحرك حركة مستمرة وهذا الجريان من نمطين على الأقل حركة دائرية حول مركزها وهى الحركة المسئوله عن قوة الطرد المركزى الذى يعادل أى يوازن قوة الجاذبية وهذا النمط من " الجرى " هو المسؤل عن استقرار المجموعة الشمسية لأنها لو توقفت تبعثرت الكواكب وارتطمت .

وبالنظر إلى هذا النمط من الجرى أى الدوران حول المركز يكون معنى حرف " اللام " هنا يشير إلى العلة والحكمة من الجرى يعنى أن الشمس تجرى لإحتوائها على مُستقر لها هو مركزها وهى تسعى بهذا الجرى لإيجاد والحفاظ على إستقرارها

فى مجموعتها وعلى كيانها كنجم مضئ يهب النور والحرارة لأن الجرى حول المركز هو الذى يحفظ الإستقرار إذ يوازن قوة الجذب الهائلة فهى تجرى بحثاً عن مجال تستقر فيه أى " مُسْتَقر " ينسب إليها أو منسوب لها يعنى (نظام المجموعة الشمسية) .

والنمط الثانى من الحركة هو حركة الإبتعاد أوالتباعد التى تعترى كل الكون فإن الأجرام السماوية كلها تشبه حقاً سفناً ومراكب تسبح فى بحر هائل وهى فى سباحتها تواصل التباعد عن بعضها أو أنها تشبه بقعاً صغيرة مرسومة على سطح بالونة هائلة تواصل الإتساع لإستمرار " النفخ " فيها ومن ثم فإن تلك البقع تواصل التباعد عن بعضها فهى فى حركة مستمرة توسع الكون أو تمدده إلى أن يأتى الوقت الذى لا يحتمل فيه الكون المزيد من الإتساع كما لا تحتمل البالونه المزيد من النفخ عند بلوغها أقصى سعتها فحينئذ تنفجر وتتطاير أشلاءها ويومئذ وقعت الواقعة !!

إن القرآن يوضح أن الشمس " تجرى " وهى تفعل هذا بحثاً عن الإستقرار أو حتى تصل إلى الإستقرار . على أى من المعنين يشير إليه حرف " اللام " فانظر وتأمل !!

هل يمكن لبشر أن يؤلف " هذا " القرآن ؟!

سنضرب مثلاً آخر لحرف تم حذفه

﴿ قتل أصحاب الأ خدود ، النار ذات الوقود . إذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ﴾ (١)

الإخدود هو الحفرة العميقة الضيقة التى تصنع بالأرض والمقصود هنا هو الإخدود الذى حفره الكفار وأشعلوه فيه النار ثم ألقوا فيها بالمؤمنين الضعفاء .

يشير الله إلى تلك القصة ويهدد قريش الذين يضطهدون النبى وأصحابه إذ ـ يتوعدهم بمصير الكافرين أصحاب الأخدود ذاكراً أنه سبحانه وتعالى قد قتلهم

---

(١) سورة البروج (٤-٧)

والمقصود غضبه عليهم إذ حكم بهلاكهم الأبدى فى جهنم وهذا هو معنى القتل الإلهى .

المتوقع أن يقول إذن ﴿ قتل أصحاب الأخدود ﴾ فى ﴿ النار ذات الوقود ﴾ يعنى فى جهنم الذين هم أنفسهم وقودها الذى يشعلها لكنه حذف حرف الجر (فى) فأصبحت الجملة الواردة فى الآية الخامسة ﴿ النار ذات الوقود ﴾ على البدل من " الأخدود " فأشار بحذف حرف الجر (فى) إلى أن الأخدود الذى حفره الكفار لم يكن أكثر من صورة دنيوية " للنار " التى سيكون هؤلاء الكفار أنفسهم هم ذات وقودها ﴿ إذ هم عليها قعود ﴾ يعنى عندما يأتى الوقت لقعودهم عليها . إذن فعندما حفر الكفار الأخدود وألقوا فيه بالمؤمنين فقد كانوا فى باطن الأمر يحفرون لأنفسهم أخدوداً فى النار نار جهنم التى سيكونون هم وقودها "وهم "حينذاك ﴿ على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ﴾ إذ تعرض عليهم أعمالهم التى إجترحوها فى الدنيا لأنها مدونة محفوظة فى كتاب " العلم " فيظلون ينظرون إلى أنفسهم وهم يعذبون المؤمنين بينما هم الآن - فى الآخرة - الذين يتعذبون فى الأخدود الذى حفروه لأنفسهم ﴿ وكذلك يريهم الله أعمالهم ﴾ (١) التى قاموا بها فى الدنيا وهم يذقون ويلات باطنها ﴿ حسرات عليهم ﴾ (٢) تنزل لتزيد من ألمهم ويأسهم ﴿ وما هم بخارجين من النار ﴾ .

فأنظر كيف عرفنا أن الأعمال التى نشهد ظاهرها فى الدنيا سنذوق باطنها فى الآخرة فلا يُجزى الإنسان إلا عمله نفسه إذ يَلْقَى فى الآخرة باطن العمل الذى أدى ظاهره فى الدنيا ونفهم من هذا أن الدنيا والآخرة ما هما إلا وجهين لشىء واحد وجزاء الآخرة هو إبتلاء بواطن الأعمال ﴿ هنالك تبلو كل نفس

---

(١) سورة البقرة الآية ١٦٧ .

(٢) سورة يونس الآية ٣٠ .

مـا أسلفت ﴾ (١) .

وعرفنا أن الإنسان عندما يظلم أخاه فإنه فى الحقيقة لا يظلم إلاَّ نفسه فالجميع إذن فى الحقيقة واحد . عرفنا كل هذا من التأمل فى حرف جر محذوف .

---

(١) سورة يونس الآية ٣٠ .

٥ – من أنماط الفن فى القرآن

يحلو لبعض " المثقفين " المنكرين لنبوة " محمد " صلى الله عليه وسلم أن يتوهمه مصلحاً إجتماعيا من الطراز القادر على صنع التاريخ وهو أيضاً – فى س ذلك الوهم – مفكراً أدبياً من طراز نادر قد أستغرقته التأملات فى الكون والحياة وفى مصير شعبه فذهب إلى الجبال ليختلى بنفسه فى العزلة التى تساعده على صفاء التفكير وتألق العبارة .

هذا هو تفسيرهم للقرآن كنص أدبى وعمل فكرى هائل كانت له القدرة على تغيير الناس وإحداث الإنتقال من القبيلة إلى الأمه ومن ثم كان بوسعه أن يصنع التاريخ ويغير مجرى الحياة على كوكب الأرض بصورة لم يسبق لها مثيل ولم تكرر من بعد !!

هذا الإفتراض يزعم أصحابه أيا كانت ميولهم الفكرية أنهم أهل العلم ويظنون أنهم يجاملون " محمد " أكثر من اللازم إذ ينسون إليه العبقرية الفذة التى لم تتكرر متغافلين عن أن زعمهم هذا قد نسب إليه " الكذب " كالسم المدسوس فى عسل المدح الزائف .....

ولكن هذا الإفتراض لا يثبت أمام النقد الموضوعى وتتبين خرافته أمام النظرة الأولى المتفحصة .

من المؤكد طبقاً لهذا الإفتراض أن يكون " محمد " صلى الله عليه وسلم قد خرج من غار حراء حاملاً كتابه فى يده أو قصيدته الملحمية فى صدره كاملة مرة واحدة ليقرأها على قومه مقدماً لهم أفكاره وحلوله للمشكلات الإجتماعية الفكرية التى تعترض حياتهم وهذا بالطبع لم يقع فى التاريخ أبداً لأن " القرآن " كان تجربة حية إستمرت نيفاً وعشرين سنة ألقيت فيها الآيات خلال هذة المدة الطويلة فى ظروف جد متباينة بل فى ظروف لم تكن لتسمح أبداً – بالنظر إلى بشرية " محمد " لا بصفاء الفكر ولا تألق العبارة وهو أمر لا يكاد يشك فيه أعدى أعداء القرآن فإن تألق عبارته يقين لا يقترب منه أدنى شك .

والمفروض طبقاً لهذا الزعم أن يتجلى فى القرآن التغييرات الذى يناظر التغييرات الهائلة التى أكتفت تاريخ تنزيله من عداء عارم فى المجتمع الذى تنزل فيه إلى حصار .

وإضطهاد إلى الحروب حيث القتال والهدنة والمعاهدات إلى محاولات الإغتيال والغدر وإلى مئات من العوامل والأسباب التى من المحتم أن تترك أثرها العميق فى تفكير كل إنسان .

وكان لابد أن يُظهر القرآن " إختلافاً كبيراً " لإختلاف الظروف التى أحاطت بظهوره وهو ما نبه إليه القرآن نفسه إذ يقول " أفلا يتدبرون القرآن ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه إختلافاً كثيراً " (١)

وليس المعنى أن القرآن يحتوى على إختلاف قليل بل هو كائن حى متجانس الأجزاء متكامل لا يتناقض بل ينير بعضه بعضاً بدليل أننا إذا أردنا أن نستجلى معنى آية أو لفظ أو حرف كما بينا فى الأمثلة السابقة نجد أنه من الضرورى أن نستحضر آيات كثيرة أخرى تترابط مع بعضها وتتضافر لتكوين صورة رائعة .

ولكن هذا يتطلب إحتراماً عميقاً للنص القرآنى وتأمل طويل فيه وهو المُعبر عنه بالتدبر .

إن " القرآن " حقا كريم يفيض بالمعانى ويكشف عن أسراره ولطائفه ويُظهر بدائع الروابط الظاهرة والباطنة بمجرد أن يمس فى قلب قارئه روح الإخلاص بل أنه يفتح الغيب ويجعل المحجوب مشهوداً " وما هو على الغيب بضنين " (٢) .

والمقصود أنه لو حاول مخلوق أن يعبر عن المعرفة الواسعة العميقة التى تندرج تحت علوم لا يحصرها حد فإنه لا بد أن يخطئ كثيراً وأن يتناقض مع بعضه وأن يختلف أسلوبه من مجال إلى آخر أما القرآن فإن يظل محتفظاً بشباته محافظاً على جماله

---

(١) سورة النساء الآية ٨٢

(٢) سورة التكوير الآية ٢٤

وقوته سالماً من أى خطأ رغم أنه تنزل على " محمد " صلى الله عليه وسلم فى ظروف تحتم الإختلاف . والمفترض طبقاً للزعم القائل أن القرآن هو ثمرة تأملات " محمد "صلى الله عليه وسلم كبشر فى الحياة المفترض أن يكون" النص القرآنى " إبناً شرعيا للمجتمع العربى الجاهلى فى مكة حيث نرى فيه الشعب الذى سكن شبه الجزيرة العربية فى القرن السادس الميلادى بأفكاره وعاداته ومشكلاته وصراعاته والحلول التى يقترحها مؤلفه لأن " النص الأدبى " مولود طبيعى للمجتمع الذى وُلد فيه وأعتقد أن هذه هى الغاية التى كان يسعى إليها من تشككوا فى الشعر الجاهلى وأدعوا أن كله منحول فى أزمان لاحقة لأنه فى هذه الحالة لن يصبح أمامنا لمعرفة المجتمع الجاهلى إلاّ النص القرآنى وتستحيل حينئذ مقارنة القرآن بشئ معاصر له يبين لنا فى نور المقارنة سمو القرآن عن الزمان والمكان الذى ولد فيه .

ههنا بالضبط يوجه " القرآن " ضربته القاضية على ذلك الزعم إذ يتجلى لقارئه تجاوزه للعصر الذى شهد تنزيله . إن المجالات التى تناولتها الآيات والقضايا التى بحثها القرآن بعمق بل والآساليب التى عرض بها مضمونه تتجاوز العصر الجاهلى دون أدنى شك .

من الضرورى بالطبع أن نجد صورة العصر الجاهلى مرسومة على مرآة السور لأن القرآن رسالة توجهت إلى ذلك المجتمع ولكن النص القرآنى يتجاوز العصر الذى نزل فيه بكل وضوح .

لقد كان القرآن ثورة هائلة فى التعبير بالغة العربية ولم يكن بأى حال من الأحوال إستجابه إبداعية للعصر الجاهلى فهل يمكن لكاتب فى القرن السابع الميلادى أن يتحدث عن تكوين الإنسان جنيناً داخل الرحم .

وفى نفس النص يتحدث عن جريان النجوم والكواكب بل ويعتبر فى لمحة علمية جمالية باهرة أن الكون بمثابة بحر هائل وأن النجوم والكواكب والقمر والشمس تشبه سفناً تمخر عبابه وبل ويلوح إلى اتساع الكون المتواصل إذ

يقول " والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون " (١) إذا مجرد مثال .

من المستحيل على إنسان عاش فى القرن السابع الميلادى أن تخطر هذه الفكرة على عقله وأن يلمح إليها لشعب يناصبه العداء ولن يفهمها أبداً . إننا لا نتحدث عن صحة أو خطأ هذه الفكرة بل عن حاجة العصر الجاهلى إليها وعن قدرته على فهمها وعن المشكلة العلمية التى كانت مثارة حينذاك وجاءت هذه الآية لتعطى " رأى " " محمد " صلى الله عليه وسلم فيها ؟!

فما بالك عندما يتأكد النصف الثانى من القرن العشرين من صحتها وسلامتها العلمية من الخطأ ؟!

وكيف يتأتى لرجل عاش فى الصحراء تحيط به الجبال وتحاصر عينيه الرمال فى كل الجهات كيف يتسنى له فى لمحة " شاعرية " أن يتصور الكون محيطاً هائلاً من الماء وأن النجوم والكواكب تسبح فيها " لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكلٌ فى فلك يسبحون " (٢) إننا نركز الإنتباه هنا على التعبير " الفنى " باعتباره نصاً أدبياً ناظرين إلى الصورة البلاغية لا إلى الحقيقة العلمية . وكيف يتسنى لرجل لم يركب البحر فى حياته ولا مرة واحدة كيف يتسنى له التحدث عن البحر وركوب السفن ومشاعر الناس حين يحسون بالغرق والأمواج تحيط بهم من كل جانب بهذه الكثرة اللافته فى آيات القرآن .

بل يتحدث عن ظلمة أعماق البحار ويستخدمها فى إقامة تشبيه بين حال الكافر وحال الغائص فى ظلمة البحر عاجزاً عن الرؤية .

" أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم

---

(١) سورة الذاريات ـ الآية ٤٧

(٢) سورة يس الآية ٤٠

يجعل الله له نوراً فما له من نور " (١)

إن هذه الأمثلة تؤكد لنا أن الثورة القرآنية كانت ثورة علمية إذ يبدو للقارئ المنصف القرآن كينبوع عميق من المعرفة قد أنفجر على حين فجأة وعلى غير توقع ودون أن تمهد له اية إرهاصات انفجر فى ظلمة القرن السابع الميلادى فى شعب أمى لا يقرأ ولا يكتب فى قلب نبى أمى لم يتلق أى تعليم بشرى منتظم انفجر نوراً باهراً كاشفاً عن كنز عظيم لم يزل الإنسان ينهل من فيضه الكريم منذ ما يقرب من ألف وأربعمائة عام وإلى أن ينتهى الزمان الذى سيفنى ولن تفنى عجائب القرآن .

كانت الثورة القرآنية ثورة فنية أيضاً إذ إرتفع مستوى الاداء الفنى المعبر عن ذلك البحر العميق من العلم إلى ذروة لا يبلغها إنسان وتتمثل هذه الثورة الفنية فى إستحداث اساليب لم يعرفها العرب وفى رفع مستوى الأساليب التى عرفوها إلى مستوى لا يبلغه بشر .

فأما الوجه الأول المتمثل فى الاستحداث فأول ما يلفت الإنتباه هو أسلوب الحوار .

إن القرآن يعد بحق مدرسة عليا يتعلم فيها الأدباء فن صياغة الحوار بين الشخصيات . إنه كتاب الحوارات الرفيعة نسمع فيه محاورات بين الله والشيطان وبين الشيطان والإنسان وبين الإنسان وخالقه كحوار الله مع آدم وحواره مع سائر الأنبياء ونستمع فيه أيضاً إلى المجادلات العنيفة بين الأنبياء وخصومهم والاب وابنه بل ننصت فيه إلى تخاصم أهل النار .

وفى الحوار القرآنى نلمس الخصائص النفسية المميزة للشخصيات بحيث تبدو الكلمات كأنها مرآة مصقولة تتجلى عليها بواطن النفوس فى أوضح صورة وتندرج الجمل الحوارية فى ترتيب تصاعدى يعبر عن ارتفاع الصراع بين الطرفين المشتبكين فى الجدال إلى نقطة الذروة التى ينقطع عندها الكلام وينفجر الفعل

(١) سورة النور الآية ٤٠

المعبر عن جوهر الإرادة الإلهية التى تلبس رداء الحرية الإنسانية فى مشهد يضع المستمع المنصت أمام " سر " القدر وجها لوجه يطالع فيه " يد " الله وهى تسوق مصائر البشر إلى نهايتها المحتومة دون قهر أو إجبار بل بمحض الإختبار " فيشعر " أن عمل المخلوق ليس إلا " رسماً " مشهوداً لعمل الخالق وأن لله الحجة البالغة .

إن الحوار القرآنى هو المثل الأعلى الذى ينبغى لكتاب " الدراما " أو فن التعبير عن الصراع الإنسانى أن يتطلعوا إليه بعيون متفحصة ليأخذوا من إبداعه الدروس ولنضرب مثلين قصيرين يفيان بالمقصود مراعاة لضيق المقام .

لدينا أولاً حوار " نوح " الرسول عليه الصلاة والسلام مع إبنه وقد بدأ الطوفان ينهمر وصار الهلاك محتوما ولا نجاة لأحد إلاّ بالركوب فى السفينة .

فلنقرأ هذا المشهد لنرى ونسمع ما وقع منذ ألاف السنين كأنما يتحقق أمامنا الآن .

" وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ونادى نوح ابنه ، وكان فى معزل يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين ، قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء ، قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين " (١)

إن ابن نوح كان يلتزم الصمت تجاه أبيه ولا يعلن عن رأيه فى رسالته بل يتحاشاه ويتنجب لقاءه ومواجهته هذا ما تفيده جملة " وكان فى معزل " .

جاء الطوفان " ونوح " الاب الرحيم يتمنى من كل قلبه أن ينقذ من كان يظن أنه أبنه حينئذ صرخ نوح بأعلى صوته " يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين " قال " مع " ولم يقل " مِنْ " لأنه كان يظن أنه من المؤمنين فكأنه قال أنت مؤمن فيجب أن تصحب المؤمنين فى السفينة ولا تبقى مع الكافرين

(١) سورة هود (٤٢ - ٤٣)

الذين سيغرقون لا محالة .

وجاء الرد صدمة مذهلة وضربة قاضية للأمل فى النجاة

لقد أفصح الابن عن الكفر فى اللحظة التى صار فيها هلاك الكافر حتما مقضياً ههنا الصراع بين الأب الذى يحب النجاة والسعادة لابنه الوحيد وبين الرسول الذى يجب أن يرضى بحكم الشريعة الإلهية حتى وإن أدان أقرب الناس إلى قلبه وكان لابد للاب أن يعلو صوته محاولاً أن ينتشل إبنه الوحيد فى اللحظة الأخيرة .

إن الأبن لا يرى فى الطوفان إلا سيلاً من الماء يمكن الفرار من بطشه باللجوء إلى جبل عالٍ " قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء " أما النبى الرسول فيرى فى هذا الماء عذاب الله النازل بغضبه على أهل الأرض ولا نجاة إلا بالركوب فى السفينة فإن فيها رحمة الله . قال " لا عاصم اليوم من أمر الله إلاَّ من رحم "

ولكن ضاعت هباءً صرخات " الاب " وأصر الابن على موقفه " وحال بينهم الموج فكان من المغريقين " وسيعاتب " الأب " الرب على غرق الأبن ولكن سيكتشف أن الغريق ليس أبنه فى مفاجأة أكثر إذهالاً من الغرق نفسه .

﴿قال يا نوح إنه ليس من أهلك . إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إني اعظك أن تكون من الجاهلين﴾ (١)

إنه اكتشاف للحقيقة بعد التجربة المفزعة وتبين لحكمة القدر بعد معاناة الإبتلاء ودرس بليغ ليلتزم الإنسان حدوده ويسلم الأمر لله الخالق المتصرف في الأكوان بمفرده .

---

(١) سورة هود الآية (٤٦).

والصورة المقابلة للحوار السابق هي بين (إبراهيم) عليه الصلاة والسلام وأبيه حيث نري الإبن الرحيم البار بوالده يريد هدايته والأب الشيخ الكبير مصر على عقيدته ورأيه لا يريد أن ينغير قيد أنملة .

﴿واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولايغني عنك شيئاً﴾ (١)

إبراهيم يريد أن يدفع أباه للتفكير والأب صامت لا يتكلم ولا يرد عليه ولا ندري ماذا يدور في داخل نفسه .

﴿يأبت إني قد جاءني من العلم مالم يأتك فاتبعني أهدك سراطاً سويا﴾.

ها هو الأبن يريد أن يقوم مقام القائد لأبيه وهنا تكمن المأساة في نظر الوالد الذي يري أن في هذا قلباً للأوضاع ﴿يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً﴾ .

هذا سباب وتحقير رغم كل الحنان المتدفق في كلمة يا أبت هكذا يفكر الوالد الذي يغلي قلبه بالغضب إذ كيف يجرؤ إبنه علي أتهامه بأنه يعبد الشيطان .أنه يشق عصا الطاعة متمرداً علي حكمة الأباء والأجداد .

﴿يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا﴾. مجرد المس الذي هو أقل وأسرع مباشرة للعذاب الصادر عمن وسعت رحمته كل شيء . مجرد ذلك القدر الضئيل من العذاب سيجعلك تابعاً للشيطان في

(١) سورة مريم (٤١- ٤٨) يجب أن نلاحظ هنا قوله تعالي "واذكر في الكتاب" يقصد إقرأ باسم ربك في الكتاب الذي أبسطه أمام بصر قلبك لتتذكر قصة إبراهيم وما وقع بينه وبين أبيه وقوم فهذه القراءة إذن هي القراءة الثانية التي يحدث بها الذكر يعني التخلص من النسيان الذي وقع منذ القراءة الأولى في بدء الدنيا "وذلك الكتاب مستتر في قلبك يا محمد وها هو الوحي ينيره لك فتضيء بعض كلماته ويحدث "الذكر" .

طريق الهاوية فتكون صاحبه حيث يهوى بك في بطن جهنم حيث العذاب الذي لا يشوبه أي قدر من الرحمة.

هذا تهديد إذن ولابد أن يلزم هذا الولد حده .

﴿ قال أراغبٌ أنت عن آلهتي يا إبراهيم ﴾ .

إذن أنت تشق عصا الطاعة وتعلن التمرد .

﴿ لئن لم تنته لأرجمنك ﴾.

إنني أهددك كما تهددني وسألقي عليك الحجارة.

إنك أنت الشيطان الملعون لا أنا .

﴿ وأهجرني مليا ﴾.

أخرج من بيتي ولاتعد إليه أبداً ابتعد عني تماماً لا أريد أن أرى وجهك .

إذن لقد ذهبت كل نصائح إبراهيم هباءً منثوراً ولم يجده التحنن على أبيه والتودد إليه شيئاً فقد أعلن (الرجل) عن كفر صريح ثابت لا يتزعزع.

لقد أستعلنت الحقيقة الكامنة في القلوب بالكلمات المندفعه من الألسنة وليس أمام إبراهيم إذن ألاَّ أن يتوجه إلي (الله) لعله يرحم أباه الذي يضرب في عمى الضلالة لا يريد أن يهتدي .

﴿قال سلام عليك﴾ ينزل من الله يا أبتاه .

﴿سأستغفر لك ربي﴾ لعله ينقذك من سوء عملك .

﴿إنه كان بي حفياً﴾ فلا تتوهم أنني منبوذ ملعون بل إن ربي يرعاني ويهتم بشأني ولا يهمل سؤالي.

﴿وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وادعو ربي عسي ألاَّ أكون بدعائك ربي شقيا﴾

لا وفاق بين الطرفين المشتبكين في حوار محموم يتصاعد وقد شعر إبراهيم بعجزه أمام الحقيقة الصلبة التي لا تلين لرغبات البشر وشعر بالشقاء الذي هو العجز عن إزالة ما يكره ولم يعد أمامه من طريق إلاَّ اللجوء إلى ربه بالدعاء ليرفع شقاءه.

على هذا النحو البديع يمضي الحوار في القرآن كاشفاً بواطن النفوس معلناً عن حرية الإنسان في إختيار مصيره الذي قد رسمته الأقدار دون قهر أو إجبار في أروع تجسيد للصراع الإنساني في ميدان الإبتلاء .

إن القرآن لم يحاول أن يضع نهاية سعيدة زائفة لقصصه لإنه لا يزيف الحقائق بل يكشف عنها في أجلى صورة ومادام الصراع بين (روح الله) وبين الشيطان قائماً دائماً في قلب الإنسان الذي يدخل أتون الإمتحان ولا بد له من الإختيار بحريته أو بما تفرضه عليه نفسه التي لا يكون شيئاً سواها. إذن فهو محكوم عليه بحريته إن صح التعبير والقرآن يعرض عليه الوقائع والنماذج بالحق وعليه أن ينتقي لنفسه ما يرى أنه جديرٌ بها .

هذا درس بليغ من القرآن للأدباء . ويجذب إنتباهنا بعد ذلك الحوار الداخلي أو حديث النفس (المنولوج) وهو أسلوب فني لم تعرفه العربية قبل القرآن.
﴿وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين﴾ (١) .

هذا ما قاله إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) في نفسه بعد أن اشتبك معهم في حوار ساخن وبخ فيه عبادتهم للأصنام والذي يشد القلب فعلا بروعته هو الإنتقال من الحوار الخارجي أو العلني بين (إبراهيم) وقومه إلي الحوار الداخلي أو الباطني بين إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) ونفسه دون وقوع أي اضطراب في السياق يشعر بحدوث هذا الإنتقال من الخارج إلي الداخل فلم يقل مثلاً وحدث إبراهيم نفسه قائلاً تالله لأكيدن أصنامكم .... إن هذا يشير إلي أن قائل القرآن يعلم كل شيء ظاهراً كان أو باطناً بنفس القدر فلا تختلف درجة

(١) سورة الأنبياء الآية (٥٧).

الوضوح بالنسبة إليه .

﴿سوآءٌ منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار﴾ (١)

فالجميع سواء أمام علم الله.

ويرسم لنا (القرآن) أزمة المشرك الجاهل الذي يري في ولادة البنت (عاراً) يريد أن يمحوه في تصوير فني بليغ ﴿وإذا بشر أحدكم بالأنثي ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتواري من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه علي هون أم يدسه في التراب ألآساء ما يحكمون﴾ (٢)

فها هو الرجل يجلس في قلق ينتظر البشري ولكن تأتيه بغير ما يشتهي فيخبرونه بولادة أنثي وكان يريد ذكراً يؤكد به نفسه فتعلو الكأبة وجهه الذي كان يتهيأ للتألق بالفرح ويبقي وجهه مسوداً من كأبته يفور السخط في قلبه علي ما حكم به الله ولكنه لا يقدر علي البوح بما يغلي في باطنه فيكتمه مما يزيد من غيظ قلبه الذي يمتلأ حتي يضيق بما فيه وتضيق عليه الأرض بما رحبت فيفر من كل شيء لا يريد أن يري أحدٌ عاره .

يتواري من القوم الذين يشمتون فيه ويعايرونه لا يقدر علي مواجهتهم من سوء من بشر به فماذا يفعل هل يبقي علي هذا المولود الأنثي بالرغم مما سوف يلحقه من مذلة ومهانة أم يحفر حفرة ويدس عاره في التراب ﴿آلا ساء ما يحكمون﴾!!

أنظر كيف عبر عن سلوك الرجل (إسوداد الوجه والتواري من القوم) وكظم الغيظ وعن وجدانه الممتليء بالسخط وحديثه لنفسه (أيمسكه علي هون أم يدسه في التراب) فهذه الكلمات تصور أفكاره معبرا بهذه الألفاظ القليلة عن حالته

---

(١) سورة الرعد الآية (١٠).   (٢) سورة النحل الآية (٥٩).

النفسية ظاهراً وباطناً في إقتصاد معجز ودون أن يشعر القاريء بأي حركة فجائية تشي بالإنتقال من وصف الخارج إلي تصوير الداخل .

إن هـذه الأمثلـة تـؤدي بنـا إلي التحفـة الأدبيـة الرائعـة التي لم تسبقها أية إرهاصات في الأدب العربي يمكن أن تؤدي إليها كما لم تلحق بها أية محاولات فهي ترتفع فوق كل ما أنتجه البشر في ميدان القصص أعني (قصة يوسف) التي أحتوت عليها السورة المسماه بإسمه (عليه الصلاة والسلام) .

لقد وصفها القرآن نفسه بأنها أحسن القصص ﴿نحن نقص عليك أحسن القصـص بمـا أوحينـا إليـك هـذا القـرآن وإن كنـت مـن قبلـه لمن الغافلين﴾ (١)

(القصة) إسم مشتق من فعل (قصَّ) الذي يعني تتبع الأثر الذي يحدثه السائر بقدميه علي الأرض وبموجب هذا الأصل ينبغي للقصة كجنس أدبي أو كشكل من أشكال فن الأدب أن تكون رصداً بالكلمات لخطي الإنسان في حركته وهو يعبر تجارب الحياة أي أنها تتبع لخطاه علي طريق الزمن . هذا هو الأصل لفن القصة وتعريفها الجامع المانع .

ولكن الفن بصفة عامة والأدب علي وجه أخص لا يرصد كل التجارب الإنسانية فإنه لا يقدم سجلاً شاملاً لحياة الإنسان كفرد أو جماعة ولكنه ينتقي التجارب ذات المغزي واللحظات الأكثر جوهرية ومحور الإنتقاء قائم علي إعتبار أن الفن وسيلة للمعرفة ، معرفة الإنسان لنفسه وللعالم من حوله من خلال تجربته الذاتية عبر (الوجدان).

ومن ثم فإن الأديب بإعتبار أنه الفنان الذي يستخدم الكلمات (كخامة يصنع منها كائناته يقوم بإنتقاء التجارب واللحظات الكاشفة عن جوهر الشخصية الإنسانية فيصور لنا الحالات التي يشتبك فيها الإنسان في صراع يضيء مكنونات

---

(١) سورة يوسف الآية (٣).

نفسه ويظهر بواطنها فيتعرف الإنسان علي نفسه .

والقاص الموهوب هو الذي يتمكن بصدقه ومهارته من أن يجعلنا نري أنفسنا في شخصيات قصته فنعايشها بالقراءة كما لو نحن أبطالها إذ أننا نعاني نفس الآلام التي تعانيها الشخصيات (الفنية) وتجتاح نفوسنا نفس الأهواء وتمر علي عقولنا خواطر مماثلة ومن ثم فإننا نندمج ونتوحد مع النص المقروء ونريد أن نعرف ماذا سيكون مصير (الشخصية) التى تتجلى أمامنا لإننا فى الحقيقة نريد أن نعرف ما هو مصيرنا وماذا تخبيء الأقدار لنا ؟.

والفرق الجوهري بين القصة والرواية أي القصة الطويلة هو في إمتداد الزمن وأثره علي الشخصيات فإذا كانت القصة هي تتبع أثر الإنسان علي طريق الزمن فإن الرواية تتبع أيضاً أثر الزمن علي الإنسان وهو يمخر عباب بحره راكباً سفينة تجاربه.

هذا الشعور بتيار الزمن وأثره في تغيير مكونات الشخصية الإنسانية وملامحها هو الخاصة المميزة للرواية (القصة الطويلة) لأننا فيها يجب أن نري شخصيات تتطور وتتغير ملامحهال الظاهرة والباطنة .

في ضوء هذه المقدمة نستطيع أن نقول أن سورة يوسف قد احتوت علي (رواية) هائلة لم يسبقها مثيل ولم يلحقها شبيه بعد كل ما ألفه البشر من قصص وروايات فإذا اعتبرنا أن كل آية هي جملة فإننا نستطيع أن نقول أنه في تسعة وتسعين جملة هي مجموع الآيات التي تناولت أخبار يوسف في السورة وفيما لا يزيد تقريباً عن عشر صفحات مكتوبة بخط مخصوص يستغرق مساحة أكبر من الصفحة في هذا الحيز الضيق المحدود الذي لا يستطيع واحدٌ من كبار الأدباء أصحاب المواهب النادرة ألاّ أن يكتب قصته قصيرة في هذا الحيز أستطاع القرآن أن ينشأ رواية تناولت عدداً كبيراً من الشخصيات المحورية ، (يوسف) نفسه وأبوه يعقوب وإمرأة العزيز وزوجها والملك وطباخه وساقيه بالإضافة إلي الشخصيات الهامشية التي تلعب أدوارٌ هامه لا يمكن الإستغناء عنها في بناء الرواية مثل أخوة

يوسف الأحد عشر كوكباً والرجل الحكيم من أهل امرأة العزيز الذي أظهر براءة يوسف من الزنا وحاشية الملك والموظفين والعمال والخدم الذين كانوا تحت إدارة يوسف بعد أن صار العزيز الأول في السلطة ونساء القصر وعليه القوم اللاتي تكلمن في عرض المرأة المفتونة بحسن يوسف ورجال القافلة العرب الذين أنقذوا يوسف من البئر والباعة والمشترين في سوق العبيد ورجال القوافل التجارية التي كانت تواصل الترحال بين مصر والشام .

لقد اشتبكت هذه الشخصيات وتضافرت في بناء رواية متعددة المستويات تكشف من عن كل أشكال الصراع الإنساني في هذه الدنيا اذ بينت صراع الغيرة بين الأخوة أبناء الرحل الواحد التنافس بين أبناء الضرتين وصراع المرأة العاشقة بين الحب الجارف الذي يدمر في طريقه كل شيء وحواجز الشريعة والعرف ، الصراع الأبدي بين الهوي والواجب .

والصراع مع الظروف الطبيعية بحثاً عن الرزق ، والصراع علي السلطة الذي يدور في القصورا حيث المؤامرات ومحاولات القتل بالحيلة والسم والصراع مع الأقدار التي تأتي دائماً علي غير ما يهوي الإنسان وهو صراع شمل الجميع في حلبته الدائرة فقد عاني (يعقوب) النبي من فقدان إبنه المحبوب (يوسف) الذي عاني بدوره من مضايقات أخوته التي أوشكت أن تبلغ حد القتل ومن الظلم بالحبس في السجن بضع سنين وعاني الأخوة من سمو قدر (يوسف) عليهم وعانت المرأة من حب جارف لا تقدر علي مقاومته وعاني الأخوة من إتهام خاطيء بالسرقة وعاني كل واحد من كل شيء مختلف.

إننا نتحسس في هذه الرواية معني الزمن عندما نعاين كيف تابت المرأة وعرفت (الحق) بعد أن ذاقت التجربة وكيف ندم الأخوة إذ ﴿قالوا يا أبنا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين﴾ (١)

وكيف رضي يعقوب النبي (صلي الله عليه وسلم) عن قدر الله فعاد اليه

(١) سورة يوسف الآية (٩٧).

بصره بعد أن زال وكيف سامح يوسف (صلي الله عليه وسلم) أخوته عندما أقروا بخطئهم إذ قال ﴿لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين﴾ (١)

أحداث كبيرة عبر زمن ممتد تتناول جم غفير من الشخصيات تخوض ابتلاءً عظيماً يكشف لها الحقيقة ويعرفّها بأنفسها كل ذلك في عشرة وريقات صغيرة يمكن أن تختصر إلي النصف إذا إستخدمنا رسماً آخراً في كتابة الكلمات فأي مخلوق من الأنس أو الجن يمكنه أن يبدع هذا ؟!

ولنتأمل في هذه الآية لنشهد الإعجاز في الإيجاز والتصوير الحي المجسد للمشاعر والأهواء والمفاجأة المذهلة التي تختم الحدث علي غير توقع من جميع المشاركين فيه .

﴿واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر ، وألفيا سيدها لدا الباب ، قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءًا ، إلا أن يسجن أو عذاب أليم﴾ (٢)

لقد أغرته بنفسها وهيأت كل شيء ليتقدم إذ غلقت الأبواب عليهما وحدهما ولكنه ظل علي إحجامه فتنازلت عن كبريائها الأنثوي وهي السيدة العالية المقام وليس هو إلا أحد خدمها ﴿وقالت هيت لك﴾ وقد تهيأت لك وانتظرك في شوق ولهفة ولكنه تشبث بتقواه فاندفعت تريده عنوة اذ همت به وكاد أن يهوي إليها وهو يحس بأنفاسها وعطرها أقرب إليه من أي شيء ﴿لولآ أن رأى برهان ربه﴾ إذ كشف الله له فى هذه اللحظة الفارقة عن المحرقة الرهيبة التي ينحشر الزناة من الرجال والنساء في أسفلها إذ يضيق بهم وتشتعل النيران فيصرخون من الألم ويقزفون إلي أعلي يريدون الفرار من الضيق وبعد معاناة فظيعة واد

(١) سورة يوسف الآية (٩٣). (٢) سورة يوسف الآية (٢٥).

يتوهمون أنهم قد أوشكوا أن يخرجوا من فوهة المحرقة الضيقة علي حين فجأة يجدون أنفسهم يهبطون إلي أسفل حيث تلسعهم النيران.

كان هذا هو برهان ربه الذي كشف له في أقل من طرفة عين في تلك اللحظة الفارقة علي الصراط بين الجنة وجهنم فانتفض يعدو تجاه الباب يريد الفرار من محرقة الزناة التي رآها رآي العين وأنفاس العاشقة تلفح وجهه وبوغتت المرأة ولكنها لم تملك نفسها وقد استبدلت بها الرغبة الجامحة فأسرعت وراءه كل منهما يريد أن يصل إلي الباب أولاً هو ليفتحه ليهرب من المحرقة وهي لتغلقه تريد وصاله ولو أدي إلي الهاوية لكنه هو الأسرع فأخذ يعالج القفل يريد أن يفكه بينما هي تشده تجذبه إلي قلبها الذي احترق من حبه ومزقت قميصه من ظهره وكانت المفاجأة إذ فُتح الباب من الخارج واذا بزوج المرأة وسيد القصر واقفا ومعه بعض رجاله . لقد أذهلت المفاجأة الجميع يوسف والمرأة وزوجها والرجال وكل من حضر هذه الواقعة حتي القرآء الذين يستمعون إلي هذا القرآن.

فماذا تفعل المرأة لقد وجب القتل في حقها طبقاً لكل الشرائع الألهية والوضعية . إنها تخون زوجها وهو سيدها وفي بيته . لكنها أيضاً ماهرة مثل الشيطان تستطيع أن تتلون فتماسكت وأصلحت من ثيابها وغيرت نبرة صوتها لتبدو في صورة الزوجة العفيفة التي حاول الخادم اللئيم أن يلوث شرفها المصون وتوجهت إلي زوجها تريد أن توحي إليه بهذه الرواية الكاذبة﴿قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً﴾.؟

ما عقوبة الشخص الذى أراد خيانتك في أهلك ولكنها إذ خافت على معشوقها الفتان أن يلقى حتفه جزاءاً على تلك الخيانة الموهومة أسرعت تقول ﴿إلاّ أن يسجن﴾ . تعني ليس له عقاب إلا أن تحبسه في السجن ولكنها أدركت أن السجن سيبعده عنها ولن تمتع إذن عينيها بالنظر إلى وجهه فأردفت ﴿أو عذاب أليم﴾ تعني لينال علقة ساخنة يتألم منها عقوبة له علي إهانته

لأنوثتها إذ فرّ منها كمن يفر من لعنة مشئومة ولكن لا تقتلوه عسى أن يراجع نفسه ويعود إلىّ حبيباً عاشقاً.

لقد أفزعها أن ينتوي سيدها قتل عشيقها فأخذت توجه عقل زوجها فى الطريق الذي يُبقي علي (يوسف).

ولنتأمل الأن كيف أوجزت هذه الآيه القصيرة المشهد الرائع فى كلمات قليلة وتصوير حى يجسد المشاعر الفوارة فى القلوب فى حركات جسمية معبرة وكيف عبرت عن رغبة المرأة الجامحة دون أن تخدش حياء القارئ أو تثير غرائزه أو تهين المرأة نفسها وكيف أظهرت لنا قدرة المرأة علي التلون والكذب المقنع الذى يستثير عواطف الرجل .

لقد إضطررنا لكى نفهم الآية أن نكتب كل هذه الكلمات وبالطبع يستطيع غيرنا أن يستنبط الكثير من هذا النص المعجز . إن أعظم الأدباء لا يستطيع أن يعبر فى هذه الكلمات القليلة عن عشر المعانى التي ترد إلى القلب بالتأمل فى الآية.

ولنتأمل كم من المال والوقت والأدوات والجهد البشرى يمكن لأعظم مخرج سينمائى أن يستهلكه لكى يصور هذا المشهد الذى أخرجته الآيه على هذا النحو البديع .

إن كل امرأة يمكن أن ترى نفسها فى أمرأة العزيز وكل شاب بوسعه أن يجد فى تجربة (يوسف) تجسيداً لمعاناته وكل أب مكلوم بفقد إبنه المحبوب يتوحد مع يعقوب وهكذا يجد الإنسان نفسه فى كل أوضاعه وحالاته فى شخصيات هذه الرواية المعجزة ومن ثم فإنه يقبل عليها وهي تتلى مستمعاً منصتاً وتيار حياته الشخصية يمر أمامه واضحاً جلياً فى نور الوحى فيمكنه حينئذ وهو فى موقف المشاهد الحر الذى إرتفع فوق مستوى وضعه الشخصى وظروف معيشته الضيقة أن يتأمل وجوده ويتخذ العبرة التى تروق له وهذا هو الهدف البعيد الذى يسعى

كل الأدب العظيم لبلوغه.

ويتباهي القرآن بأمثاله التي ضربها للناس توضيحاً للحقائق الغيبيةوالعقلية بتجسيدها فى صور محسوسة تجعلها في متناول العقل وتحثهم على التفكير وتدعوهم إلى التذكر . يقول ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾ (١) والتفكر هو الإستدلال بالمشهود على الغائب يعنى الصعود بواسطة العقل من الصور الى المصور ومن المخلوقات إلى الخالق . ويقول ﴿ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ﴾ (٢) والتذكر هو الخلاص من النسيان فيكون المثل المضروب وسيلة للرجوع من المسموع المعلوم إلى المنسى المجهول المدفون فى باطن القلوب من كلام الله القديم . ويقول ﴿تلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلاّ العالمون﴾ (٣)

والعقل هو الإمساك بمعنى الكلام بحفظ نصه ومعرفة المقصود منه وهو الفقه والآية دليل على أن الوصول إلى معانى القرآن يتطلب علماً راسخاً فلا يعقل امثاله إلاّ من يوصف بالعلم .

ولنأخذ نموذجاً واحداً وهو المثل الذى ضربه (القرآن) على نفسه ليبين كيف نور الله به السماوات والأرض فى نزوله القديم من الكتاب المبين والدنيا تتهيأ لبدء يومها.

﴿الله نور السموات والأرض﴾ (٤)

الله هو الذي أنار السموات والأرض يعنى جعلهن مرئيات مدركات بالأبصار بعد أن كن غارقات فى الظلام فصيرهن مشهودات بعد أن ظللن غائبات.

والسؤال كيف تحقق هذا وكيف تسنى لنا أن نرى السموات والأرض بعد أن

---

(١) سورة الحشر الآية (٢١).
(٢) سورة إبراهيم الآية (٢٥) .
(٣) سورة العنكبوت الآية (٤٣) .
(٤) سورة النور الآية (٣٥).

كن مستورات فى الظلمة؟!

لابد من مثل يوضح ما وقع لعلنا نتفكر ثم نتذكر فقال مفسراً بمثال.

﴿مثل نوره كمشكاة فيها مصباح﴾.

يعنى حال نوره عندما أنار السموات والأرض يشبه حال فراغ مظلم أو فضاء معتم أُنزل فيه مصباح أو وضع فيه سراج والمشكاة هى التجويف المظلم الذى يصنع فى الجدار ليكون موضعاً للمصباح بالليل.

يُشَبِّه الله حال السموات والأرض أثناء ظلمة الغيب بتلك المشكاة المعتمة التى تحفر فى الجدار وقد نزل فيهن مصباح كما يوضع السراج فى التجويف المظلم والمصباح هنا هو محمد (صلى الله عليه وسلم) النبى الأمى وهو يتنزل من سماء إلى سماء حت ى نزل من السماء الدنيا إلى الأرض يسوق الخلائق على الصراط القائم الممتد من جنات عدن حيث كانوا فى السموات إلى الأرض ليبدوأ حياة الإبتلاء وقد أُعطى حينئذ الرسالة بنزول (القرآن) عليه ليبلغ كل الخلائق كلام الله وهو ما أشار إليه بقوله ﴿المصباح فى زجاجة﴾ يعنى قد وضع ذلك المصباح المنير فى زجاجة ليتألق نوره ويفيض على ما حوله كما يحاط المصباح بوعاء زجاجى ليحفظ الفتيل المشتعل من فعل الريح التى تحاول إطفاءه.

والزجاجة هنا تشير إلى (الرسالة) التى أعطيت للمصباح الذى هو النبى صلى الله عليه وسلم فكانت بمثابة رداء لبسه القلب الشريف ففاض بالنور كما يفيض السراج الموضوع فى المشكاة إذا أحطناه بزجاجة هى التى يصدر عنها النور مع أنها ليست فى الحقيقة إلاّ مرآة تفيض بالنور الذى يأتيها من قلب المصباح ...من الفتيل المتوهج فهى تشبه فى هذا (القمر) الذى يتألق فى السماء فائضاً بالنور الذى ينزل عليه من الشمس فهو ليس أكثر من مرآة عاكسة فهذه الزجاجة إذن ﴿كأنها كوكب درى﴾ جسم سماوى متألق البياض وهو القمر الذى خلب الألباب بجماله الوضاء ﴿يوقد من شجرة مباركة﴾ يتوهج من النار التى تأتيه

من شجرة دائمة الحياة ﴿زيتونة﴾ كأنها فى استدارتها ومنافعها العديدة تشبه ثمرة الزيتون التى يُنتفع بكل شئ فيها.

فى الأسلوب إستعارة مثل أن تقول رأيت وجهه أصفر ليمونة تقصد أصفر مثل لون الليمونة ﴿لا شرقية ولا غربية﴾ هذه الشجرة لا توصف بأنها إلى جهة الشرق ولا إلى جهة الغرب لأن الشرق والغرب يتحددان بها ولا يحددانها فإليها يُنسب الشرق والغرب وهى لا تُنسب إلى أى جهة منهما وإذن فهذه الشجرة بلا جدال هى (الشمس) فإننا نحدد جهة الشرق أو جهة الغرب بالنسبة إليها وهى دائمة الحياة بل هى التى تفيض بالحياة على وجه الأرض فهى مباركة وهى تميل إلى الإستدارة وكثيرة الفوائد مثل ثمرة الزيتون ﴿يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار﴾ يوشك باطنها الملتهب الذى يحتوى على مادة سائلة تشبه زيت الزيتون يوشك أن يتوهج من شدة الحرارة رغم أن ليس ثمة نار قد مسته وهذه هى حال الشمس التى تتوهج فى السماء دون أن تقربها نار من الأرض. هذه الشمس (الشجرة المباركة). هى التى تمد القمر (الكوكب الدرى) بما يفيض به من نور يبدد ظلمة الليل على الأرض والشمس هنا رمز إلى نور النبى الأمى الذى سبق الكتاب والقمر/ الزجاجة هو رسالة (القرآن) هكذا أنار الله السماوات والأرض بنزول القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم عند بدء الزمان.

﴿نور علي نور﴾

نور هو القرآن كلام الله نزل على نور هو (محمد) صلى الله عليه وسلم ﴿هدي الله لنوره من يشاء ويضرب الأمثال للناس والله بكل شيء عليم﴾.

فكأنه قال بهذا المثال أن الله قد نورُ السموات والأرض بإنزال (القرآن) على نبيه (محمد) كما ينور (القمر) ليل الدنيا مستمداً نوره من (الشمس) وإذا كان هذا التأويل صحيحاً فلابد أن يكون نور الله هذا فى متناول أيدينا هنا قريب

غير بعيد فأين نجده ؟! وتأتى الإجابة من الآية التالية مباشرة تؤكد صحة التأويل إذ تقول ﴿في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها إسمه يسبح له فيها بالغدو والأصال رجالٌ لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار﴾ (١) ما هى هذه البيوت ؟! إنها المساجد وماذا نسمع فيها ؟! القرآن :

فقوله ﴿فى بيوت اذن الله أن ترفع﴾ إجابة عن السؤال أين نجد نور الله الذى وصفه المثال ، وفى التأويل السابق يصبح (القمر) الذى يرمز إلى رسالة (محمد) أو (القرآن) هو المصباح الذى وضع فى زجاجة ولقد تلقى هذا التأويل تأييداً باهراً فى العصر الحديث حيث ثبت بدليل قاطع أن الطبقة الخارجية من سطح القمر تتكون أساساً من (زجاج) كما برهنت العينات التى جمعها رائد الفضاء الأمريكيان اللذان هبطا على سطح القمر بسفينة الفضاء أبوللو ١٧ .

ليس الأمر إذن مجرد براعة لغوية لا نظير لها أو تأويل باطنى فحسب بل هو أيضاً وقبل كل شئ حقائق علمية يتأكد رسخوها يوماً بعد يوم ببراهين قاطعة فسبحان من كان هذا القرآن كلامه !!.

---

(١) سورة النور (٣٦ -٣٧).

(٦) نماذج من البديع القرآنى

إن المثل السابق يوضح بأبلغ بيان كيف يستعمل القرآن الأساليب البلاغية المعروفة وكيف يرفع مستواها إلى ذروة شاهقة لا يستطيع كلام مخلوق أن يرفع إليها بصره . لقد إحتوى المثل على تشبيه " الزجاجة كأنها كوكب درى " واحتوى على إستعارة " شجرة مباركة زيتونة " وهما من أساليب البديع العربى ولكنهما فى القرآن يشيران إلى معانى علمية عميقة ويثيران " العقل " بقدر ما يمتعان " الوجدان " بما يفيضان من جمال . لقد إستعمل القرآن أساليب البشر البلاغية ولكن ليعبر عن معرفة آلهية فكان لابد أن يسمو بهذه الأساليب إلى مستوى لم تعرفه من قبل ولا من بعد على الرغم من بساطته المذهلة .

ولمزيد من البيان نقول إن الشاعر العربى الموهوب يستعمل الأساليب البلاغية والصور الفنية التى تبدعها قريحته الغنية من أجل غاية واحدة هى تجسيد مشاعره وتجربته الإنسانية الذاتية العميقة فى صورة صوتية مرسومة بالألفاظ تجعلها قريبة من " قلب " المتلقى تنفذ إليه عبر " الوجدان " فتفضى إليه " بسر " الجمال وربما أثارت فى عقله بعض التأملات الفلسفية التى تتناول مغزى الحياة وسر الوجود لكن دون أن تستطيع أن تضيف إليه معلومات أو أن تثير عقله لإكتشاف حقائق علمية وهنا بالضبط تتجلى عظمة الأساليب البلاغية القرآنية لأن القرآن ـ كما قلنا ـ ثروة لغوية وعلمية أو بتعبير آخر هو ثورة فى المعرفة والتعبير

ولقد ذكرتك والرماح نواهل   منى وبيض الهند تقطر من دمى
فوددت تقبيل السيوف لأنها   لمعت كبارق ثغرك المتبسم

هذان بيتان من الشعر يحتويان على صورة فنية رائعة لم تزل حية يتذوقها الإنسان ويتمتع بجمالها الذى لم يذهب بعد ما يزيد عن الألف وأربعمائة عام . يصور فيهما الشاعر عمق حبه وتعلق قلبه بمحبوبته الفاتنة التى تذكرها حين

أحاطت به الأعداء وصارت رماحهم تناوشه والسيوف البيضاء البتارة المصنوعة فى الهند تطعنه ويسيل عليها دمه والموت أقرب إليه من كل شئ يحيط به من كل جانب حينئذ وهو يحدق فى مغزى حياته التى أوشكت أن تنصرم بضربة سيف أو طعنة رمح حينئذ تراءى له وجه حبيبته قريباً منه حتى أنه أوشك أن يهوى على السيوف التى تقطر من دمه يهوى عليها بالقُبل إذ كان يرى فى بياضها المتألق فم حبيبته عندما يفتر عن إبتسامة صافية .

هل يستطيع واحد من الشعراء أن يبدع صورة فنية أجمل من هذه وحتى إن ترجمت هذه الصورة إلى لغة أخرى غير العربية وفُقد جمالها الصوتى ستظل تحتفظ بحسنها المرئى المشهود والقادر على النفاذ إلى وجدان الإنسان أياً كان لسانه . ربما يتفكر الإنسان بعدها فى أن " الحب " هو أهم محرك للإنسان بل لقد جعله الشاعر هو الحياة نفسها فى جوهرها إذ اتخذ منه نظيراً للموت فعندما أحدق الموت به تذكر حبيبته . عندما أحدق الموت بمحمد صلى الله عليه وسلم فى غزوة " حنين " تذكر أنه النبى فأنشد بوجدانه العربى الصميم " أنا النبى لا كذب أنا بن عبد المطلب " وعندما أحدق الموت بعنترة تذكر حبه وتراءى له وجه حبيبته على مرآة السيوف اللامعة وهى تقطر من دمه .

يالها من صورة بديعة يأخذ جمالها بالقلوب إن الصورة الفنية التى حملها البيتان أضاءت لنا نفس الشاعر كما كشفت لنا عن جانب من حياة العرب قبل الإسلام حيث الحروب الطاحنة بين القبائل وتمجيد الشجاعة والمهارة فى القتال وسمو قدر الخيل والسيف وأدوات الحرب وهكذا يمكننا أن نرى بالإضافة إلى نفس الشاعر - المجتمع الذى يعيش فيه ولكن هل يمكن أن تثير العقل وتكشف له عن حقائق الكون المشهود هل يمكن أن تقدم إلى معلومات جديدة وتحثه على التفكير . من المؤكد أن الإجابة لا .

أما صور القرآن الفنية وأساليبه البلاغية فإنها تفعل كل هذا بإقتدار معجز ولنأخذ عنصراً واحداً من عناصر البيئة العربية التى شهدت مولد القرآن

ولنرى كيف استخدمه القرآن فى تكوين صورة فنية بديعة ولكنها قادرة على إثراء العقل بالإضافة إلى إثارة الوجدان وهى تعطى العلم وتدعو للفكر بقدر ما تبوح بسر الجمال وليكن هذا العنصر هو " الجبال " التى كان العرب يعيشون عند سفوحها وبين أحضانها يرونها فى الحل والترحال يجلسون فى ظلالها يحتمون بها من قيظ اليوم شديد الحر ويتطلعون بعيون مندهشة إلى سيول الماء وهى تجرى على أجسادها العظيمة تشق الطريق إلى الأرض العطشى فى أوقات المطر ويرمقونها فى جلال وهى تقف شامخة ثابتة على مر الزمان تطرق صامته إلى الأرض وعيون الليل شاخصة فى السماء تنظر إليها وهى ترتدى ثياب الظلام لتختفى حتى تأتى الشمس من الشرق فتخرج الجبال من الخفاء لتقف فى نفس المكان طوال اليوم .

لاشك أن الجبال جسدت فى وجدان العربى معنى الثبات والصمت والشموخ فهو يراها واقفة فى مكانها لا تتحرك بينما هو ينتقل مع أغنامه من بقعة إلى أخرى أو مسافراً مع القوافل إلى اليمن أو الشام والجبال ثابتة على الطريق لا تغير مكانها قيد أنملة .

وهى باقية لا يعتريها التغيير يشيخ الإنسان ويموت وتختفى الكائنات وتذوب فى الفرا غ كأنها لم تكن بينما الجبال صامدة على مر الزمان باقية لا تموت لاتشيخ ولا يعتريها الوهن ولاتصل إليها يد الموت التى أحاطت بكل شئ فكأن الجبال تسمو فوق الحياة .

وهى صامتة لا تنبس ببنت شفة ترعد السماء ويصرخ أهل الأرض وتعلوا أصواتهم بالضحك أو البكاء بينما الجبال واجمة خرساء لا تنطق بشئ . هكذا كان الوجدان العربى الإنسانى يشهد الجبال .

فكيف رآها القران ؟! تذهلنا الصورة التى رسمتها الآيات القرآنية للجبال والتى تقطع بأن قائل القرآن كان أكبر من الإنسان . فماذا قال ؟!

﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة ، وهى تمر مر السحاب ، صنع

الله الذى أتقن كل شئ وإنه خبير بما تفعلون ﴾ (١)

ها أنت تنظر إلى الجبال ببصرك البشرى فتتوهم أنها متصفة بالجمود يعنى الثبات أى انعدام الحركة أو السكون ويعنى أيضاً ثبات البناء أى التماسك .

ولكن هذه الرؤية خاطئة تماماً لا تصل إلى حقيقة الجبال فإنها نظرة إلى الظاهر مع العمى عنْ الباطن لأن الجبال فى حقيقة الأمر تتحرك وتسير كما يفعل السحاب .

فانظر كيف شبه الجبال بالسحاب إنه تشبيه مدهش مذهل لكنه يدعو إلى التأمل العميق . هذه الجبال تتحرك وتجرى مثل السحاب ولكن فى الخفاء .

فهذه إشارة واضحة إلى حركة الأرض التى تعد الجبال بمثابة نتوات على سطحها الخارجى وإذا كانت الجبال التى تمثل فى الوجدان معنى الثبات تتحرك فاعلم أيها الإنسان أن لاشئ يثبت ويبقى على حاله فكل الأشياء فى حركة دائمة وتغير مستمر .إننا نرى السحاب يتكون أمام أبصارنا على صفحة السماء تتراكم أجزاؤه بعضها على بعض ونراه حيناً آخر يتفكك ويذوب وهذا معناه أن المخلوقات كلها تتكون من أجزاء وأنها ليست فى حقيقتها إلا بناءً يتركب من أجزاء أو وحدات تتجمع وتتآلف مع بعضها لتكوين الكائن المشهود بالأبصار وفى هذا تلويح إلى وحدات بناء المادة الأساسية يعنى الأجسام الأولية التى تتكون منها الذرات التى بدورها تتجمع وتتآلف فى بناء هائل لتكوين الأجسام التى نتعرف عليها بحواسنا .

هذا قانون عام يشمل كل شئ ويتعلق بالصنعة الآلهية والدليل على صحة ما نقول هو سياق الآية نفسها إذ يقول الله بعد التشبيه مباشرة " صنع الله الذى أتقن كل شئ " أى هذه هى طريقة البناء التى أخرج الله بها كل شئ فى أحسن صورة .

---

(١) سورة النمل الآية ٨٨

إنه ينقلنا من رؤية الجبال إلى رؤية كل شئ وإلى رؤية الصانع الموصوف بالبارئ أى المتقن إلى أخرج كل شئ فى أحسن صورة .

وإذا كان تشبيه الجبال بالسحاب قد أشار كما بينا إلى تركيبها من أجزاء فهو قد أشار أيضاً إلى تفككها وتحلل أجزائها الذى يؤدى إلى إختفائها وزوالها من الإدراك فهى فى الحقيقة ليست إلا رسماً يمكن محوه أو صورة يجوز عليها " الفناء " وهو المقام الذى تشير إليه الآية ووصفه السائرين على الطريق إلى رب العالمين .

ألا تستدعى هذه الآية إلى فؤاد القارئ جبل التجلى الذى وقف عنده موسى فى سيناء طالباً رؤية ربه !! ﴿ فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً ﴾ (١)

أى تفتت الجبل وزال كيانه أو رسمه لأن الجبل فى الحقيقة ليس إلا بناءً هائلاً يتكون من أحجار تتجمع وتترابط مع بعضها البعض لتكوين ما يسمى " بالجبل " فإذا تفككت وانحلت روابطها زال الجبل وعاد كأن لم يكن . ﴿ وخر موسى صعقاً ﴾(٢) سقط موسى مصعوقاً من نور التجلى ورجع موسى حينئذ مثل الجبل كأن لم يكن لأن موسى أيضاً ليس إلا رسماً أو بناءً هائلاً فاذا تفكك وانحل ارتباط " النفس " بالجسد زال الإنسان فعاد الجسد إلى الطين واسترد الله " نفسه " " فلما أفاق " (٣) من الموت بعودة النفس إلى الجسد الذى قام بقوة " الروح " فوقف موسى ووصف ما وقع له " قال سبحانك ، تبت إليك ، وأنا أول المؤمنين " . " سبحانك "

تنزهت عن أن يراك غيرك إذ لا يثبت رسمه عند التجلى فلا تُرى إلا

(١) سورة الأعراف الآية ١٣٤ . (٢) سورة الأعراف الآية ١٣٤ .

(٣) سورة الأعراف ١٣٤ .

بروحك الذى له وحده بموجب صدوره عنك أن يراك فأنت أذن الذى ترى نفسك .

﴿ تبت إليك ﴾ رجعت إليك متحرراً من أوهامى .

وأنا أول من صدق أن روحك هو الذى وهب كل شئ حياته وبه وحدة تتم رؤيتك .

و " روح الله " هو مقام النبى الأمى إذ أحب الله أن يشهد نفسه وهذا هو أحد أسرار كثرة تردد " موسى " عليه الصلاة والسلام فى سور القرآن فهو أول من آمن بأن " محمد " هو " روح الله " أى الوسيله التى يُعرف بها الله إذ عَّرف الله نفسه به إلى خلقه . وهو أول من قام من الموت بعد الصعق .

وإندكاك جبل " موسى " عند التجلى يذكرنا بتصدع الجبل لو كان القرآن قد أُنزل عليه بدلاً من " محمد " صلى الله عليه وسلم كما أخبر حين قال ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ، وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾ (١)

والخشوع خمود الحركة والسكون ومعنى الآية أن الجبل المضروب مثلاً هو ككل الجبال التى على الأرض فى حركة مستمرة لا تتوقف وأن تلك الحركة الخفية هى التى تضمن بقاء الجبل فى رسم الجبل فهى التى تحفظ عليه بنيانه فلو إختاره ربه لينزِّل عليه القرآن لتوقف وسكن فى مكانه بلا حراك وحينئذ لابد أن يتشقق ويتهاوى بناؤه وتتناثر أجزاؤه من توقفه المفاجئ ومن تأثره بكلام الله الذى يذكره باللقاء المحتوم بخالقة وهو الخشية التى تعنى خوف اللقاء أى خوف المقام بين يدى الله .

والخشية عموماً هى الخوف القائم على العلم والعلم هنا هو العلم بلقاء الله الذى لا ريب فيه وهذه هى رسالة القرآن .

---

(١) سورة الحشر ٢١

لننظر هنا إلى قوله ﴿ لرأيته خاشعاً متصدعاً ﴾ ولم يقل لخشع وتصدع فأشار بكلمة " لرأيته " إلى دوام حضور " محمد " صلى الله عليه وسلم عند نزول الوحى إلى غيره من الخلق وهو الجبل هنا فى هذا المثال فلو نزل الوحى على الجبل لظل " محمد " قائماً يرى خشوع الجبل وتصدعه وهذا الحضور الدائم إشارة إلى النبى الأمى الذى سبق " الكتاب " وكان الوسيلة للمعرفة الآلهية فهو " روح الله " الذى لا تتحقق المعرفة إلا بحضوره فهو ماثل دوماً بين يدى الله فلا يصل أحدٌ من الخلق إلى الله إلا عن طريقه وهو الذى يخاطبه المؤمنون فى الصلاة عندما يجلسون بين يدى الله جلسة التشهد ﴿ السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ﴾ فوقوفهم بين يدى الله يعنى بالضرورة حضور " رسول الله " ولذا يجب عليهم إلقاء التحية عليه وهم يتجهون فى صلاتهم إلى الكعبة بمكة المكرمة حيث البيت الأول الذى وُضع للناس لكن الرسول " صلى الله عليه وسلم مدفون فى المدينه المنورة به فما معنى هذا ؟!

معناه أن النبى العربى الذى تسربل بجسد " محمد بن عبد الله بن عبد المطلب " لم يكن إلا رسول قد خلت من قبله الرسل الذين لم يكونوا أكثر من نواب عن النبى الأبدى " روح الله " القائم دوماً فى حضرة الله وأنهم كانوا وكلاء عنه فى إبلاغ رسالة الله إلى خلقه ولكنه لما حضر أخيراً بنفسه فى صورة النبى العربى وضمن حفظ الوحى بلا تزييف ولا تحريف اذ تعهد الله الحفظ بهذا حينئذ أُغلق باب النبوة وختم اذ لا معنى لعمل الوكيل فى حضور السيد صاحب الأمر المشار إليه بالتوجه إلى مكة أم القرى حيث الكعبة المسجد الحرام حيث نزل " روح الله " النبى وألقى على الخلق كلهم " القرآن " القديم فىأول رسالة .

واذا كنا قد رأينا جبل " موسى " يندك ويتفتت عند التجلى ورأينا الجبل

يتصدع عند نزول القرآن لو كان قد نزل عليه فبوسعنا أن نقول أن القرآن هو تجلى الذات الآلهية فهو التعبير الأعظم الذى عَرف الله به نفسه إلى خلقه وهى نفس النتيجة التى وصلنا إليها بتحليل مضمون القرآن .

ولما كان التجلى لابد أن يفنى رسوم المخلوقات ومن بينها الجبال ففى يوم القيامة الذى هو يوم التجلى لابد للجبال أن تزول وينعدم وجودها .

إن مركز الأرض يتوقف على حين فجأة بينما تستمر الجبال فى حركتها بقانون القصور الذاتى وحينئذ تبدو متحركة تسير أمام أعين الناس الذين يقفون ينظرون شاخصة عيونهم إلى الجبال وهى تندفع مهرولة فى طريق العدم ﴿ ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً ﴾(١) ﴿ وتسير الجبال سيراً ﴾ (٢) مشهوداً مرئياً بالابصار مدركاً بالأفئدة ﴿ وإذا الجبال سيرت ﴾ (٣) أمام أعين المحشورين كأنها دواب مسرعة على أقدامها لتتهاوى وتتفتت وتتناثر أجزاءها .

ستتحول إلى رمال تذورها ريح العدم فتزول كأنها لم تكن فتبدو للناظرين الذين رأوها فى رسمها من قبل أنها كانت سراباً خداعاً وجاء يومئذ ميقات انكشافة . ﴿ وسيرت الجبال فكانت سراباً ﴾(٤) لقد صور القرآن عبر العديد من آياته نهاية الجبال أبلغ تصوير إنها ترجف وتهتز بعنف ثم تُحمل مع الأرض فترتطم مع الأجرام السماوية التى يضطرب نظامها وتتبعثر فى الفضاء فتنسف الجبال نسفاً وتتمزق أُشلاء تتناثر فى كل الاتجاهات وتتحول فى النهاية إلى رمال تهال وتختفى .

وتنتهى بذلك حياتها على الأرض تلك الحياة القديمة التى بدأت من أيام الخلق الأول . الكثير من الآيات التى تتناثر فى سور القرآن تتضافر مع بعضها

---

(١) سورة الكهف الآية ٤٧ (٢) سورة الطور الآية ١٠

(٣) سورة التكوير الآية ٣ (٤) سورة النبأ الآية ٢٠

ها هى الجبال تتلقى الأمر من الله لتشارك داود الصلاة .

والجبال تغضب لمعصية الله وإهانته عندما ينسب له أبناء آدم البنين .

﴿ لقد جئتم شيئا إداً ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً ، أن دعوا للرحمن ولداً ﴾ (١)

وليست الحجارة التى تتكون منها الجبال بلا شعور فإن لها حياة باطنة تسبح فيها لله وتخشاه .

﴿ وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله ﴾ (٢)

إن الجبال مخلوقات هائلة تتميز بضخامة الأجساد إن صح التعبير وارتفاع القامة ويشعر الإنسان إزاءها بالضآلة ولذلك وبخ القرآن المتكبر المختال فى مشيته بأن لفت نظره إلى مقارنة جسده بقوة الأرض وطول الجبال حتى يتخلى عن كبريائه ويدرك أن التواضع جدير بمخلوق ضئيل الحجم ضعيف القوة مثله يقول ﴿ ولا تمش فى الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ﴾ (٣) لو ضربتها بأقصى ما لديك من قوة ﴿ولن تبلغ الجبال طولا ﴾ إذ قارنت جسمك أيها الإنسان بها .

ولكن المتكلم بالقرآن لا ينظر إلى الجبال هذه النظرة الإنسانية فإنه يراها مجرد شئ صغير تأمل فى قوله ﴿ألم نجعل الأرض مهاداً ، والجبال أوتاداً﴾ (٤) فى الآيتين إستعارتان إذ يذكرنا بنعمه علينا فيقول ألم نهيأ الأرض لكم لتكون بمثابة أسرَّة ترتاحون فوقها ونريحكم عليها فهى لكم كالمهاد بالنسبة للمولودين حيث زودها الله بكل الوسائل التى تكفل راحتكم وتضمن نموكم كما يجهز الوالدان الأسرَّة (= المهاد)

---

(١) سورة مريم الآية (٨٩ ـ ٩١) (٢) سورة البقرة الآية ٧٤

(٣) سورة الإسراء (٣٧) (٤) سورة النبأ الآية (٦ ـ ٧)

يتلقون فوقها الغذاء (= الزرق) الذى يكفل نضوجهم .

لأطفالهما لينـاموا عليهـا مرتـاحين ويتلقـون فوقهـن الغـذاء (= الـزرق) الـذى يكفل نضوجهم .

فالآية تشبه الكون كله بالبيت الذى يعيش فيه الإنسان . وقد استعارت الأرض وظيفة المهد لتكفل راحة الإنسان فى حياته عليها .

ولكـن إذا كـان الإنسـان طفـلاً مولوداً كما تشير الإستعارة فى الآية فمن هى أمه التى وُلد منها ومن هو أبوه ؟!

الأم هـى الأرض التـى أعطـت الجسـد و " الأب " هـو " روح " الله الـذى نفخ " سر الحياة " فى " آدم " أبو البشر الجسدى .

الأرض هـى التـى قدمـت الطـين الـذى تكـون منـه جسـم الإنسـان و " روح الله" هو الذى وهبه الحياة فأنزل النفس التى هى كلمة الله المودعة فى كتاب علمه أنزلها لتسكن فى هذا الجسد المأخوذ من طين الأرض وبهذا قام الإنسان .

﴿ والجبال أوتاداً ﴾ .

الجبال تلك الكائنات الهائلة ليست إلا بمثابة أوتاد دُقت فى الأرض .

مـن الـذى يسـتطيع أن ينظـر للجبـال هـذه النظـرة ؟! مـن المؤكـد أنـه ليـس الإنسان لأنه يشعر بالضآله إذا قارن نفسه بأصغر واحد من الجبال فمن الذى يقـدر علـى هـذه الرؤيـة المذهلـة ؟! لاشـك أنـه الـذى دقهـا فـى الأرض وثبتهـا لتكـون بمثابـة أوتـاد أليـس . ذاك هـو الله رب العـالمين الـذى أرسـى الجبـال فـى الأرض . ثم أخبرنا بما فعل فى كلامه المسمى بالقرآن .

الوتد قطعة صغيرة من الخشب تدق فى الأرض لترسو فى مكانها ثابتة لا تتزحزح من أجل أن تُثَّبت سقف الخيمة فلا يقع على الأرض أو من أجل أن تربط الدابة فى مكانهافلا تتوه وتضيع من أصحابها .

إذن لابـد مـن حبـل يربـط السـقف بـالأرض أو الدابـة فـى مكانهـا بواسـطة

الوتد (= الجبل) وبهذا يقوم بوظيفة التثبيت .

أول ما يلفت نظرنا عندما نتأمل هذه الاستعارة البليغة المدهشة فى بساطتها والمذهلة فى أعماقها العلمية أول شئ يشد الأنتباه هو التشابه الشكلى بين الجبل والوتد فإذا كانت الجبال أوتاداً فلابد إذن أن تكون لها أجزاء عميقة مختفية فى باطن الأرض لا تُرى على سطحها لأن الوتد يختفى نصفه على الأقل عندما نقوم بتثبيته فى الأرض والإعجاز هنا أن الجبل يشبه فعلاً الوتد إذ أن له عمقاً كبيراً فى باطن الأرض يكون بمثابة الاساس الذى يوضع للبناء تحت سطح الأرض وهذه حقيقة علمية لم تكتشف بواسطة علماء طبقات الأرض (الجيولوجيا) إلا فى القرن العشرين فأنى لبشر مخلوق عاش فى مطلع القرن السابع أن يشير إلى هذا ويتكلم به بكل هذه الثقة بل وفى سياق بلاغى يستخدم فيه أسلوب بديعى هو الاستعارة فهو لا يقصد أن يقدم درساً علمياً مقصوداً فى علم الجيولوجيا بل يسوق الحقيقة العلمية عَرَضاً فى نطاق التدليل على كمال رعايه الله سبحانه وتعالى لمخلوقاته وحسن عنايته بهم .

ثانياً : يقوم الوتد بوظيفة التثبيت فماذا تثبت الجبال ؟!

يبدو واضحاً فى نور " العلم " أن الجبال هامة جداً لإستمرار الحياة على سطح الأرض بل لا يمكن تصور نشأة الحياة واستمرار الكائنات الحية بدون الجبال التى تحفظ القشرة الأرضية ثابتة لا تهتز أثناء الحركة الدائمة المستمرة دون توقف للأرض فى دورانها حول نفسها فى كل يوم وحول الشمس مرة كل عام وفى نطاق الحركة الشاملة التى تأخذ كل شئ فى طريقها المرسوم .

إذن فالجبال هنا أوتاد لتثبيت القشرة الأرضية وبالتالى تمكين الكائنات على سطح الأرض وضمان بقاء الحياة والحبل هنا هو الجاذبية الأرضية ومن هذا نفهم أن الجبال كانت هى أول شئ ظهر على سطح الأرض وذلك تمهيداً لظهور الحياة المشهودة فى الكائنات التى تزين وجه الأرض وتنعم بالإستقرار فوقها بفضل الجبال .

لذلك عندمـا فصـل الله لنا قصـة خلق السماوات والأرض فى الآيات (٩ـ ١٢) من سورة فصلت ذكر الجبال كأول شئ ظَهَر على ظهرْ الأرض وأسماها هنا كما فى كثير من الآيات الأخرى " رواسى " إيضاحاً لوظيفتها وطريقة تكوينها كما سيتبين لنا . قال ﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً . ذلك رب العالمين ﴾ (١)

ومعنى هذا أن فَصْلَ الأرض عن السماء وإعطاءها كياناً خاصاً قد استغرق يومين أى حقبتين من أحقاب الخلق حيث عرفنا من الآية الثلاثين من سورة الأنبياء أن الأرض كانت ملتصقة بالسماوات ﴿ أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شئ حى أفلا يؤمنون ﴾

رتقاً تعنى الالتصاق وفتقناهما تعنى فصلناهما عن بعضهما أى فككنا الإلتحام الذى كان يربطهما فى كتلة واحدة .

﴿ وجعل فيها رواسى من فوقها ﴾ .

وأنزل فى الأرض الجبال التى كانت بمثابة مثبتات وضعت فيها وهذه الثوابت جاءتها من فوقها يعنى من جهة السماء التى تحيط بالأرض والتى فُصلت عنها بالفتق .

سمى الجبال هنا " رواسى " لتحديد وظيفتها وعيَّن كيف تكونت وهذا ما يستحق الإلتفات . إنه يقول أن الجبال قد وضعت فى الأرض من أعلى أى أنها جاءتها من جهة السماء ونزلت فيها وهذا هو مغزى قوله ﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى ﴾ (٢)

---

(١) سورة فصلت (٩)

(٢) سورة الحجر الآية ؟(١٩) وسورة ق الآية (٧)

وكلمة ألقينا تعنى أن الله سبحانه وتعالى فى حضور (١) " روحه " رمى بالأحجار والصخور من السماء إلى الأرض التى تلقت ما أنزل إليها .

ربما يتخيل الإنسان بحكم الوهم الذى تصنعه المشاهدة المعتادة أن الجبال قد خرجت من الأرض ونبتت فيها كما تنبت الاشجار ولكن ها هو القرآن يصحح لنا هذا الوهم ويخبرنا فى ثقة لا يقدر عليها إلا الخالق وحده أن الجبال قد نزلت إلى الأرض واُلقيت فيها ولم تخرج منها وكان لابد من تثبيت الجبال فى الأرض بالضغط عليها من أعلى يعنى بالدق كما نفعل عند تثبيت وتد فى الأرض أو مسمار فى جدار . قال ﴿ والجبال أرساها ﴾ (٢) يعنى ثبتها فى قشرة الأرض بالضغت عليها من أعلى حتى رست فى مواضعها وصارت تتكون من أجزاء خفية مدفونة تحت سطح الأرض تشبة جذور الأشجار وأخرى ظاهرة تعلو فوق سطح الأرض ونراها بالابصار وبهذا الصنع الألهى صارت الجبال حقاً أوتاداً وهى تشبة الأشجار ولكنها أشجار نزلت إلى الأرض ولم تخرج منها .

وكلمة " مددناها " الواردة فى قوله ﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى ﴾ تعنى حركناها يعنى جعلناها متحركة ومن هنا كان لابد من أوتاد تُثبَّت فيها لضمان عدم اهتزاز قشرتها التى ستنشأ الكائنات الحية عليها وهذا المعنى نصل إليه من قوله فى سورة الفرقان ﴿ ألم تر إلى ربك كيف مدَّ الظل ولو شاء لجعله ساكناً ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً ﴾ (٣)

جعل المد مقابلاً للسكون فأشار إلى أن المد يعنى فى لغة القرآن الحركة

---

(١) عندما يتكلم الله بصيغة الجمع فيجب الأن نفهم أن هذا يشير إلى خروج " روحه " الذى كان الأصل فى كل شئ خروجه من قبضة الغيب إلى نور الشهادة .

(٢) سورة النازعات الآية ٣٢ . (٣) سورة الفرقان الآية ٤٥

وعندما يقول ﴿وهو الذى مدَّ الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا﴾ (١) فهو يقصد أنه هو الذى حرَّك الأرض وأنزل فيهل جبالاً مثبتة فيها وأنهاراً تجرى على سطحها .

ووظيفة الرواسى (= الجبال) هى أن تضمن استقرار الكائنات على قشرة الأرض وتحول بينها وبين الضياع فى الفضاء الخارجى لو أنها أهتزت واضطربت حركتها بسبب دوران الكرة الأرضية والجبال هى الأوتاد إذن التى تُمسك الكائنات الأرضية بحبال الجاذبية والى هذه الوظيفة أشارت أقواله .

" وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون " (٢)

والمعنى أنه أنزل الجبال فى الأرض حتى لا تهتز بكم أثناء دورانها الذى لا يتوقف وأنزل الأنهار من مطر السماء لتقوم به الحياة على الأرض وشق الطرق التى تسيرون فيها لكى تصلوا إلى ما تريدون ولم يكن شئ من هذا ممكناً لولا الأوتاد التى ألقاها فى قشرة الأرض الدوارة لتثبتكم عليها دون اهتزاز .

" وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً لعلهم يهتدون " (٣)

هنا يتكلم بصيغة الجمع الحاضر (جعلنا) ويعبر عن الكائنات الأرضية كلها بصيغة الغائب " بهم " و " لعلهم يهتدون "
والكلام إلى " محمد " صلى الله عليه وسلم رسول الله والإشارة إلى حضوره الدائم بين يدى الله باعتباره " الروح " الذى كانت به الحياة والسر الذى أظهر كل شئ .
ويقول مخاطباً البشرية كلها .

---

(١) سورة الرعد الآية ٣ .

(٢) سورة النحل الآية ١٥

(٣) سورة الأنبياء الآية ٣١

" وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة "(١)

وبالطبع لم يكن لأى دابة أن تستقر على الأرض وتنتشر ولو أن الأرض مادت بركابها من الدواب .

ولكن الأوتاد لا تربط الدواب فقط فإنها تستخدم أساساً لحفظ سقف الخيمة مرفوعاً فوق الأرض وتحول بينه وبين الوقوع عليها بواسطة الحبال النازلة من السقف والمشدودة إلى الأرض بواسطة الأوتاد . فإذا كانت الجبال هى أوتاد الأرض كما صرحت الآية فإن السماء تصبح هى سقف الخيمة التى يتمثل بها الكون والتى تبقى مرفوعة فوق الأرض بواسطة الحبال .

فما هى تلك " الحبال " التى تنزل من السماء وتُشد إلى الأرض بواسطة الجبال فتبقى بها السماء سقفاً مرفوعاً لا يقع ؟!

تلك الحبال هى " وحى " الله النازل من السماوات السبع إلى الأرض .... أنها كلماته المنزلة من " الكتاب المبين " الذى قسم علم الله " على السماوات السبع فنالت كل سماء " أمرها " بعد تكوينهن فى اليومين الأخيرين الخامس والسادس من أيام الخلق كما أفادت الآية الثانية عشرة من سورة فصلت .

تلك الكلمات لم تزل تتنزل منذ فجر يوم الدنيا عندما بدأ الوحى بنزول فاتحة الكتاب والقرآن القديم على قلب النبى الأمى بينما كانت الأنفس تأخذ طريقها للنزول إلى الأرض لبدء حياة الإبتلاء وحتى الآن حيث ينزل الوحى فى ليلة القدر من كل عام حاملاً " قَدْراً " من أمر الله المسجل فى " الكتاب " ويستمر التنزل حتى يتم الكشف عن الكتاب كله ولا تبقى كلمة واحدة دون أن تُقْرَأ حينئذ سيتوقف الوحى لإكتمال قراءة الكتاب فتنقطع الحبال المربوطة بالجبال التى ترفع السماء فوق الأرض فتقع يومئذ الواقعة .

إذا توقف كلام الله إلى نبيه انقطعت الحبال وسُيِّرت الجبال فعادت سراباً ووقعت السماء على الأرض فحينئذ تكون القيامة .

---

(١) سورة لقمان الآية ١٠ .

ولكن ما هو السر علاقة " الجبال " تلك الأوتاد الألهية بكلمات الوحى ؟! العلاقة تتضح لأفئدتنا إذا انتبهنا إلى أن كل الأنبياء قد تلقوا الوحى فى أحضان الجبال فموسى تلقى النداء عند جبل الطور وأخذ التوراة فى جبل التجلى وعيسى نال البشارة (= الإنجيل) فى جبل الزيتون واستمع محمد صلى الله عليه وسلم إلى الوحى فى غار حراء فى الجبل الذى يقع على مقربة من مكة أم القرى . الجبال إذن كانت مواقع تلقى وحى السماء الألهى ولكن " الوحى " كما عرفنا من قبل هو تذكر إذ أنه " ذكر " الهى يذّكر به أنبياءه بكلامه القديم الذى استمعوه من قبل ومعنى هذا أن الجبال هى الأماكن التى يتذكر فيها الأنبياء كلام الله القديم والسر فى هذا هى أنها كانت الكائنات الوحيدة التى توجد على الأرض حين شرع الله سبحانه وتعالى يكشف الكتاب ويلقى الوحى على نبيه الأمى وهو يسوق الأنفس البشرية إلى الأرض فاستمعت الجبال مع البشر إلى كلام الله واحتفظت به فصارت بذلك مستودعات مسجلٌ فيها كلمات الله ومن هنا يجد الأنبياء أنفسهم يذهبون إلى أحضان الجبال فهى الأماكن الجديرة حقاً بتذكر كلام الله .

لقد كانت الجبال هى الشاهد الوحيد على الأرض لكلام الله القديم وهى التى شهدت تحمل الإنسان " للأمانة " لَمّا عرضها الله حين بدأ الكشف عن علمه .

انظر إلى قوله ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾ (١) .

الأمانة هى " خلافة الله " التى تتضمن الإلتزام بشريعته مقابل تسخير الأشياء لخدمة الخليفة وعرض الأمانة يعنى بيان الشريعة مع إظهار إرادة الله فى أن يجعل له خليفة يكون سبباً للكشف عن " علم الله " وتتحقق به مشيئة الله فى أن يُعرف

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٧٢ .

فهذا الخليفة المنتظر يكون إذن وسيلة وموضع التجلى الأعظم الذى تكتمل فيه معرفة الله .

ذلك العرض قد وقع مع بدأ الوحى فى أول الدنيا حيث لم يكن على الأرض من المخلوقات إلا الجبال فاستمعت مع السموات والأرض إلى كلام الله وعقلته واستطاعت بتوفيق الله أن تدرك ثقل المهمة الملقاه على الخليفة وعظم العذاب الواقع عليه عند المخالفة فأسرعت مدفوعة بسجيتها المحبة للنجاة ترفض العرض وتعتذر عن حمل الأمانة التى أدركت أنها لن تستطيع أداء تكاليفها الأمر الذى سيكلفها معاناة العذاب العظيم .

لقد استثقلت الجبال مع السموات والأرض " الأمانة " وطلبن بلسان الرفض الخلاص منها رحمة بأنفسهن .... هذه هى الشفقة التى استولت عليهن وفرضت عليهن الرفض مع الإصرار على عدم قبول العرض وهذا هو معنى الإباء الذى أظهرته الجبال والأرض والسموات إنسياقاً واستجابة لحقيقتهن الخاصة الباطنة فى كيانهن .

لم يكن فى هذا الرفض أى معصية لأن الأمر كان عرضاً لا تكليفاً اختياراً لا إلزام فيه حيث سُمِح لكل كائن أن يعبر عن حقيقته الذاتية دون إجبار أو قهر . لذلك فقد أسرع الإنسان يقبل العرض وحمل الأمانة بمحض اختياره .

كانت تلك هى إشارة بدء الدنيا .

حيث بدأ تجهيز الأرض من جديد مرة أخرى لإستقبال الإنسان الذى رضى دخول الإمتحان العسير الذى فرت من دخوله السماوات والأرض والجبال ..... هطلت الأمطار أزماناً طويلة ورجع عالم النبات بشتى طوائفه وأنواعه وعادت الدواب للظهور مرة أخرى على وجه الأرض وظهر الجن وتهيأت الأرض لظهور الإنسان فيها مرة أخرى لإبتلائه فكانت قصة آدم ونزولنا جميعاً - نحن البشر - كلمات مسطورة فى صُلبه تنتقل بالجماع إلى الأرحام حيث يصورنا الرحمن كيف يشاء لنظهر بالولادة فى خلق آخر مشهود كما أخبرت سورة المؤمنون .

﴿ لقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ (١) .

هذا هو الخلق القديم فى اليوم أو الحقب الرابع من أيام الخلق .

﴿ ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ﴾ (٢) هذا هو النزول فى السائل المهين عند الجماع حيث تنتقل الكلمات التى كانت مستودعة فى أصلاب الآباء إلى أرحام النساء حيث المستقر الذى تتمكن فيه الكلمة من الظهور والنماء ﴿ ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ، ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ (٣) .

هذه هى مراحل خلق الإنسان جنيناً فى داخل الرحم فانظر كيف سمى ظهور الإنسان بالولادة خلقاً آخر ﴿ أنشأناه خلقاً آخر ﴾ يعنى بعد الخلق الأول القديم الذى بقى فيه ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ من أيام وليال الخلق مخفياً مسكوتاً عنه.

لقد شهدت الجبال مع السموات والأرض حمل الإنسان للأمانة العسيرة وصارت منذ هذه اللحظة شاهدة على وحى الله المُنتزل على قلب النبى الأمى الباقى دوماً فى الحضرة الآلهية وبقيامها فى وقفة الشهادة انتصبت واحتفظت بكيانها حتى ينتهى الوحى بقيام الساعة ﴿ يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب ، كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ (٤) . من الأرض مباشرة دون أب ولا أم بل كما ينبت الشجر من التراب . ﴿ وعداً علينا ﴾ مسجلاً فى الكتاب المبين .

﴿ إنا كنا فاعلين ﴾

---

(١) سورة المؤمنون الآية ١١ .

(٢) سورة المؤمنون الآية ١٣ .

(٣) سورة المؤمنون الآية ١٤ .

(٤) سورة الأنبياء الآية ١٠٤ .

﴿ ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر ، أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ﴾ (١) .

الزبور بلا جدال هو كتاب " داود " فما هو " الذكر " (= الوحى) الذى جاء بعده الزبور " يستحيل أن يكون المقصود هنا هو القرآن الذى شهدت الأرض تنزيله فى القرن السابع بعد ميلاد " المسيح " عيسى بن مريم لأن " داود " كان قبل المسيح بحوالى ألف عام (عليهما وعلى محمد الصلاة والسلام) .

ولكن القرآن يصرح بأن " الذكر " هكذا معرفاً بأل هو الوحى الذى أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم والذى ضمن الله حفظه من التحريف والذى استدلت الآية فى إثبات صحة الزبور فى صدوره عن الله باتفاقه مع " الذكر " الذى هو الوحى المحمدى الذى جاء قبله والذى ضمن الله حفظه !!

من المؤكد أننا نستطيع الآن أن نشهد صحة نزول الوحى المحمدى القديم والذى لم يزل يتنزل حتى تقوم الساعة حاملاً كلمات الله كأنها الحبال التى تجعل من الجبال أوتاداً تحفظ الحياة على الأرض وترفع السماء سقفاً مرفوعاً كسقف الخيمة التى يتمثل بها الكون كله . فى هذه الإستعارة التى لا يملك مخلوق أن يسبر أغوارها العميقة مع أنها مجرد كلمتين بسيطتين إذ تقول فى سلاسة مدهشة ﴿ والجبال أوتادا ﴾ ولكن عجائب القرآن لا تنفد فها هو يشبه الجبال بالسفن إذ يقول ﴿ وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام ﴾ (٢) . الأعلام هى الجبال التى تنتصب فوق سطح الأرض والجوارى جمع " الجارية " وهى هنا بمعنى السفينة التى تجرى فى البحر وهذه السفن منشآت يعنى مقامات كالأبنية لها أساسات تضرب فى عمق البحر مختفية تحت السطح لا تراها عين الإنسان مثل جذور الأشجار تضرب فى باطن الأرض وهذا الجزء الغاطس كالجذر فى عمق الماء هو الذى يثبت السفينة أثناء حركتها المندفعة التى عُبِّر عنها بالجرى فهو الذى

---

(١) سورة الأنبياء الآية ١٠٥ (٢) سورة الرحمن الآية ٢٤ .

(٧) القارعة

بعد الجولة التى قمنا بها فى هذا الكون المقروء المسمى بالقرآن الكريم ..... أعتقد أنه لم يعد لدينا شك فى أن المصحف الشريف يضم بين دفتيه كائناً حياً خالداً لا يعتريه مرض ولا موت ويدوم جماله ولا يزول وكلما مضى نهر الزمن فى طريقه المرسوم من الأزل إلى الأبد إزداد تألق القرآن المجيد وأظهر المزيد من كرمه حيث أودع الله فى آياته وألفاظه وبين حروفه كنوز علمه الواسع المحيط .

ومثل كل كائن حى يمكن أن نرى خصائص الكائن بالنظر فى جزء من أعضائه كالبحر نستطيع أن نرى صفاته بالتأمل فى قطرة من قطراته فإن روح الكل توجد فى الجزء الذى يعد عيناً نشهد بها الجميع .

لهذا سوف نغترف من عذوبة ماء القرآن غرفة واحدة على قدر ما يمنحنا المقام ونتذوقها طامحين أن نشرب بها " سر " القرآن كله .

فإلى سورة القارعة

﴿ القارعة ﴾

﴿ ما القارعة ﴾

﴿ وما أدراك ما القارعة (١) ﴾

هذا تمهيد إيقاعى مفزع ينبه القلب لتلقى وقائع هائلة يثير فى الوجدان الخوف وفى العقل السؤال . إنه يشبه قرع الطبول الذى يسبق المعارك العظيمة والمشاهد المروعة .

القارعة : الصوت العظيم يخترق السمع بغتة وعلى غير إرادة منه ينبئ عن الهول المرعب وهو يحث الخطى يوشك أن يخلع الأبواب والنوافذ بل يقتلع الحصون من أساسها عند قدومه الحتمى الذى لا ريب فيه .

---

(١) سورة القارعة الآيات ١ ـ ٣ .

﴿ ما القارعة ؟! ﴾ ترى ماذا يعنى هذا الصوت الآتى لا محالة ؟!

﴿ وما أدراك ما القارعة ﴾ أنّى لك يا محمد أن تعلم معنى هذا الصوت قبل أن تشهده . يا أيها الإنسان يا من تقرأ القرآن محالٌ فى حقك أن تعلم قبل الأوان ما هى القارعة ؟! . والدراية هى الخبرة يعنى العلم السابق لكننى رحمة بك سأصفها لك لعلك تتذكر أو تخشى .

﴿ يوم يكون الناس كالفراش المبثوث (١) ﴾ إنها اليوم الذى يصير فيه أبناء آدم ملائكة كائنات مجنحة مثل الفراش الصغير الذى يطير بالأجنحة وينتشر مجذوباً إلى النار التى تشتعل يهوى إليها مدفوعاً بما فيه لا يقدر أن يمنع نفسه من التردى فى باطنها المستعر !!

من المؤكد أن الإنسان ليتعجب من تحوله إلى ملك ولابد أن يتشكك فى ذلك المصير وهنا بالضبط تتجلى روعة التشبيه لأن الفراشة التى تطير بجناحين ليست إلا طوراً من أطوار الحشرة التى تزحف على الأرض لا تستطيع حتى أن تقوم على قدمين . فإذا كانت حشرة تدب ملتصقة بالأرض لا تسطيع أن ترفع رأسها ولا ظهرها إذا كان هذا المخلوق الذى يكاد يلتصق بالتراب يتحول فى أحد أطوار ظهوره إلى فراشة تطير فى الهواء بجناحين صغيرين مزدانين ببديع الألوان فكيف تتعجب يا أيها الإنسان من تحولك إلى ملك عندما تأتى القارعة بالأهوال .

تذكر قول الله فى سورة الزخرف تعقيباً على الجدل الذى أثير حول " عيسى بن مريم " عليه الصلاة والسلام " .

﴿ ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون ﴾ (٢)

لو اتجهت إرادتنا لتحويلكم إلى ملائكة أى كائنات مجنحة تعيش فى الأرض وتخلفكم فى صوركم الآدمية لأستطعنا أن نفعل لأننا لا يعجزنا شئ فى الأرض ولا فى السماء . فكأنه قال بلسان السياق كيف تتعجبون من تحول عيسى بن

---

(١) سورة القارعة الآية الرابعة . (٢) سورة الزخرف الآية ٦٠ .

مريم بجسمه الأرضى إلى " مَلك " يعيش فى السماء الآن ينتظر عودته مرة أخرى إلى الأرض فى جسم إنسان ليؤكد صدق القرآن ويحكم بشريعة الإسلام فيكسر الصليب ويوحد الأديان قبيل نهاية الزمان .

كيف تتعجبون من هذا ونحن قادرون لو أردنا أن نصيركم ملائكة تعيش فى الأرض لا فى السماء مثل عيسى وتخلف الهيئة الملائكية صورتكم الآدمية فكل شئ مستطاع للخالق البارئ المصور العلى القدير .

وأسألوا أنفسكم كيف يحيى " عيسى بن مريم " بعد رفعه أليس فى هيئة " الملك " ومن قبله صار " إدريس " الذى رفعه الله بجسده الترابى إلى السماء الرابعة وسينزل هو الآخر ليمهد لرجعة " عيسى " مع خروج " يحيى بن زكريا " (الذى يسمونه يوحنا المعمدان) من القبر ليشارك " إدريس " الدعوة تأييداً لعودة " مسيح الله " عيسى بن مريم " صلوات الله وسلامه على جميع أنبياءه ورسله .

وستكون تلك الدعوة هى الأرض الخصبة التى سيزرع فيها " المسيح " الدجال شيطان الإنس عليه لعنة الله الفتنة الكبرى إذ يستغلها كدعاية ناسباً لنفسه زوراً أنه " مسيح الله " المنتظر .

﴿ واذكر فى الكتاب إدريس ، إنه كان صديقا نبياً ، ورفعناه مكاناً علياً ﴾ (١) .

هو السماء الرابعة حيث عاد كما كان قبل ولادته من بطن أمه .

وتأمل فى قوله عن يحيى بن زكريا (عليهما الصلاة والسلام) .

﴿ وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً ﴾

والبعث المذكور فى الآية هو بعثه من القبور فى هذه الدنيا وقبل الساعة ليؤيد عودة " عيسى " بن مريم مسيح الله كما أيده من قبل فى رسالته الأولى إلى بنى

---

(١) سورة مريم ٦٥ - ٥٧ .

إسرائيل وانظر كيف قال " ويوم يبعث حياً " عن خروجه مرة أخرى إلى شهود الدنيا وهو متصف بالحياة فهو ليس بميت بل هو حى لأنه قتل فى سبيل الله فهو شهيد .

﴿ ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون ﴾ (١)

فهم أحياء ولكننا لا نشعر بحياتهم لأن حواسنا أو آلات شعورنا تعجز عن إدراك حياتهم والسياق يوحى بمصاحبتهم لنا وشعورهم بنا ولكننا نحن الذين لم نزل فى قبضة الأجساد نحن الذين لا نشعر بهم وقد أكد حياتهم فى قوله ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألاّ خوف عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ﴾ (٢)

إذن فهم يدركون ما على الأرض ويبشرون أخوتهم من المؤمنين الذين لم يلحقوا بهم بعد على الطريق يشجعونهم على السير ويستحثون خطاهم بأنهم سينالون الأمن وسيزول عنهم كل الحزن وسينالون الجزاء الحسن بإيمانهم وأعمالهم الصالحة .

فكيف يحيى الشهداء عند ربهم ؟!

لقد رآهم النبى " صلى الله عليه وسلم " فى حواصل طير خضر تسرح فى الجنة ثم تأوى إلى مصابيح معلقة بالعرش . إذن فهم فى هيئة الملائكة المقربين بل إن عوام المؤمنين يتحولون فى مدارج الصعود بالبرزخ إلى ملائكة إذ يصيرون من

---

(١) سورة البقرة الآية ١٥٤ .

(٢) آل عمران ١٦٩ ـ ١٧١ .

أهل اليمين (١) وأهل اليمين هم الملائكة الذين يقفون على يمين القلب الإنسانى يحثونه على الإيمان والطاعة ويحذرونه من الكفر والمعصية ويشهدون على عمله ويسجلونه فى الكتاب الذى يلقاه بن آدم يوم القيامة منشوراً .

لم يصرح القرآن فى سورة القارعة بالنار ولكنه أشار إليها بذكر الفراش المبثوث لأن الفراش يستدعى إلى قلب الإنسان النار التى يهوى إليها ولكن إذا كان الناس ابناء آدم قد تحولوا إلى ملائكة تشبه الفراش المبثوث فمعنى هذا أن لا شئ من مخلوقات الطين قد بقى فى الأرض لأن كل المخلوقات التى ظهرت على الأرض كانت تهدف فى غايتها إلى ظهور الإنسان الذى يعد ثمرة شجرة الخلق كما أجاد وصفه الأستاذ سعيد النورسى .

لقد فرغت الأرض الآن من سكانها الذين كانوا يعمرونها الحياة ويزينون وجهها ولم تعد هنالك إذن حاجة إلى الجبال تلك الأوتاد الآلهية التى دقت وغرزت فى قشرة الأرض لتحفظ الكائنات بحبال الجاذبية وترفع السماء بحبال الكلمات الآلهية فلابد حينئذ أن تزول الجبال ولذلك وصف حالها يومئذ قائلاً .

﴿ وتكون الجبال كالعهن المنفوش ﴾ (٢)

تتفكك الجبال وتتطاير أشلاؤها المتناثرة مثل فتائل الصوف المنتفخة التى تتبعثر فى الفضاء من شدة الريح التى تضربها .

إنها ريح الغضب التى تنفخها جهنم من قلبها المتقد فإذا زالت الجبال وقد كانت سراباً لم يعد شئ بقادر على الإمساك بتلك الفراشات الإنسانية الواهنة

---

(١) سورة الواقعة ٨٩ - ٩٠ " وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين " يعنى إن كان " الروح " الذى خرج من جسد الميت من المؤمنين الطائعين فمصيره أن يكون واحداً من أهل اليمين وهم الملائكة الذين يلقون عليك يا محمد " السلام " من ربك والذين فى وسعهم أن يشهدوا مقامك لدى ربك ولكن من بعيد فيلقون إليك بالتحية كالطيور تحوم حول البستان خارج الأسوار أما المقربون فإنهم دخلوا وجلسوا فى جوارك المأمول !!

(٢) سورة القارعة الآية ٥ .

فتندفع تهوى بجذبة جهنم حيث صار الإنسان أمامها وجهاً لوجه بلا حجاب يحميه تشده من خطاياه التى فاضت بها عليه وقت الإبتلاء .

قوة رهيبة تجذب " الإنسان " الذى لم يعد أكثر من فراشة صغيرة تهوى إلى النار فإلى أى شئ يلجأ الإنسان ليستمد القوة التى تحرره من قبضة جهنم وقد أوشكت أن تجذبه من خطاياه إلى باطنها المستعر أى شئ بوسعه أن يقاوم النزاعة للشوى التى تشده ؟! إنه العمل الصالح الذى يتجلى فى هذه اللحظة الفارقة جوهره ومغزاه . إنه القوة الوحيدة التى بوسعها أن تقاوم جذبه جهنم .

﴿ فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية ﴾ (١)

الموازين هنا هى الموزونات أى الأشياء التى تم اعتبارها ووضعت على الميزان لتقدير ثقلها والمقصود هو الأعمال الصالحة أى الطاعات فإن العمل الصالح هو الشئ الوحيد الذى يقام له وزن فى ذلك اليوم فهو العملة الوحيدة التى يمكن التعامل بها فى " سوق " القيامة .

فالعبد الذى وزنت له أعمالاً صالحة وكانت من الثقل بقدر ما يكفى لإكسابه القوة التى يتحرر بها من جذبه جهنم فإنه يستطيع أن يخرج من مجال نفوذها إذ يصير ثقيل الوزن فينزل إلى الأرض التى ستكون موضعاً للجنة .... جنة الخلد حيث ظروف الحياة التى تعطى السعادة الكاملة وهو ما عبرت عنه الآية بالمعيشة الراضية فهى ليست معيشة مرضية من العائش بها فحسب بل هى راضية عنه وهذا الرضى هو مظهر رضى الله سبحانه وتعالى الذى رضى عن العبد فرضى به مقامه فى الجنة ورضى العبد عن ربه فرضى عن معيشته التى اختارها الله له وتلك المعيشة هى موضع ذلك الرضى المتبادل ﴿ رضى الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك لمن خشى ربه ﴾ (٢)

---

(١) سورة القارعة ٦ - ٧

(٢) سورة البينة الآية ٨ .

فهو مقام لا يحصل عليه إلا من تحققت فيه خشية الله ﴿ ذلك الفوز العظيم ﴾ (١) ﴿ أولئك حزب الله ﴾ (٢) .

الذين يحق لهم أن ينسبوا إلى الله فهم حقاً أبناء (روحه) الساجدون الذين يتقلب فيهم (النور) ﴿ وأما من خفت موازينه فأمة هاوية ﴾ (٣) .

لم يجد من الطاعات ما يثقّل وزنه لذلك فإنه لا يقدر على مقاومة جذب جهنم له فيسقط فيها كأنه الإبن العائد إلى حضن أمه بعد غياب طويل اشتد فيه شوقها إليه فهى تنتظره على أحر من الجمر فإذا تلقفته أمسكت به تدفعه فى جوفها المظلم المحترق لا يستطيع الإفلات من قبضتها . إنه لم يغب عنها لحظة واحدة أبداً فهى لم تزل تذكره بمعاصيه التى كان يرتكبها أثناء إبتلائه حتى إذا رأته من بعيد ذليلاً مهاناً يقف مخذولاً وقد تخلت عنه رحمة الله يريد أن يفر مفزوعاً من هول المفاجأة وبشاعة المنظر فإنها تسرع إليه فتلتهمه قبل أن ينجح فى الهرب فتدسه فى باطنها الملتهب ولا تفلته .

إنه ابنها الذى رجع إليها بعد أن اشتعل قلبها من الغيظ لبعده عنها . انظر كيف نسب القرآن الكافر لأمه " جهنم " إذ قال ﴿ فأمه هاوية ﴾ يقصد فإن أم الكافر المتمرد هى النار الكبرى التى تشبه حفرة عميقة لا يُرى لها قرار فإذا كانت جهنم " الهاوية " هى أمه بنص الآية فمن هو أبوه ؟! حقاً إنها إستعارة ولكن السؤال يفرض نفسه على المتدبر للقرآن .

لقد تبرأ منه فلم ينسبه إليه بل نسبه إلى أمه التى ولد منها فهو يشبه الإبن غير الشرعى الذى لا يعترف أبوه بنسبه إليه لتمرده عليه بإصراره على المعصية ولذلك فإنه يحرمه من (الميراث) جزاءً وفاقاً لسوء عمله و " الميراث " هنا هو الجنة التى عرضها السموات والأرض .

---

(١) سورة المائدة الآية ١١٩ .   (٢) سورة المجادلة الآية ٢٢ .

(٣) سورة الفاتحة الآية ٨ ـ ٩ .

إن الكافر هو الإبن غير الشرعى الذى رفض شريعة الله وأعلن التمرد عليها وأبوه هو " روح الله " النبى الأمى الذى وهب كل شئ حياته وقد أعلن أبوه تبرأه منه ورفض أن يبقيه معه فى البيت الذى اختاره لنفسه وهو جنات عدن التى وسعت السموات والأرض . لقد طرده من البيت ونسبه إلى أمه جهنم .وهى فى هذه الإستعارة البديعة المرأة المكروهة المهجورة التى رفض الأب الرحيم العادل (روح الله) أن يبقيها فى عصمته أو أن يدخل بيتها أو أن ينسب أولادها إلى نفسه إذ هم ليسوا أهلاً لرحمته . لقد أعلن ﴿ أن الله برئ من المشركين ورسوله ﴾ (١) .

﴿ وما أدراك ماهية ، نارٌ حامية ﴾ (٢) .

---

(١) سورة براءة الآية ٢ لاحظ غياب البسملة من أول السورة .

(٢) سورة القارعة ١٠ ـ ١١ .

(ب) الصحة الكاملة للنص القرآنى :

(إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم ، وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)

فصلت ٤١ ـ ٤٢

(سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أولم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد)

فصلت ٥٣

لا شك فى أن القرآن يمثل استثناء فريداً من بين كل الكتب التى تنتمى تاريخياً إلى العصور القديمة فهو الكتاب الوحيد الذى ضُبط نصه بدقة وبعد محاكمة عقلية نزيهة إذ كانت لا توضع آية فى " المصحف " الذى قد صدر القرار من الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضى الله عنه بكتابته ليكون الوثيقة الرسمية المعتمدة الحاملة لكلام الله كانت لا توضع الآية إلاّ بعد شهادة إثنين من الرجال العدول وذلك عند جمع القرآن لأول مرة فى كتاب بعد وفاة النبى " صلى الله عليه وسلم " بما لا يزيد عن عام واحد . ثم ضبط النص أكثر بالنقط لتتوحد القراءة على قراءة قريش فى عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه وبهذا العمل الفريد الذى لم يسبق له مثيل فى تاريخ البشرية كلها وصل إلينا " القرآن " المجيد مضبوطاً كتابة وقراءة ومقطوعاً بصحة نسبته إلى النبى " صلى الله عليه وسلم " الذى تلقى الوحى .

إن القرآن بمفرده من بين كل الكتب القديمة هو الوثيقة الوحيدة الموثوق فيها والتى لا يمكن عقلاً التشكيك فيها بغض النظر عن موقفنا الدينى منها باعتبارها وحياً إلهياً وليس هذه هى حال الأسفار الدينية الأخرى سواء فى العهد القديم أو العهد الجديد فإنها من ناحية التوثيق ـ بغض النظر عن الموقف الدينى ـ أوراقاً مجهولة المصدر لا يعتد الناقد المؤرخ بقيمتها التاريخية فكما قلنا إن العهد القديم ليس أكثر من سيرة شعبية مجهولة المؤلف أو بالأحرى المؤلفين لأن جمعاً غفيراً من البشر قد شارك فى صياغتها حتى وصلت إلينا على الصورة المشهودة الآن بعد حوالى عشرين قرناً من " موسى بن عمران " النبى الذى تنسب إليه الأسفار الخمسة الأولى عليه الصلاة والسلام .

والأناجيل ليست إلا قصصاً أو سيرة كتبها رجال بعد اختفاء البطل (المسيح عليه الصلاة والسلام) من التاريخ فى ظروف غامضة ولم يزعم كُتّاب هذه القصص أو الأناجيل أنفسهم أنهم قد كتبوها بإملاء (روح القدس) فإن " لوقا "(١) ـ مثلاً ـ كاتب الأنجيل الثالث يقر فى الأصحاح الأول من إنجيله بأن

(١) إنجيل لوقا ـ الأصحاح الأول .

الكثيرين قد شرعوا فى تأليف قصص خاصة " بالمسيح " عليه الصلاة والسلام وأنه بدوره قد قام بتحقيقات شخصية فى الموضوع وجمع الأخبار من أفواه الذين سمعوا من المسيح أو شاهدوه ثم كتب انجيله بعد ذلك كثمرة لبحثه هذا وفى صورة خطاب إلى صديق له يسمى ثاوفيليس . إن هذا الإنجيل فى حقيقته وباعتراف كاتبه لوقا ليس إلا خطاباً بشرياً مرسلاً من صديق لم يعايش الأحداث التى يحكى عنها إلى صديق آخر والإثنان الكاتب وصديقه مجهولان فلا أحد يعرف بالضبط من هو " لوقا " كاتب الإنجيل المسمى بإسمه وكذلك كل الكتاب الآخرون متى ومرقص ويوحنا . لا أحد يعرف بالضبط من يكون هؤلاء الرجال ولا كيف كتبوا قصصهم التى أخذت فى التاريخ إسم الأناجيل والتى أعتبرت كتباً مقدسة معتمدة فى مجمع نيقية فى القرن الرابع بعد ميلاد " المسيح " الذى تنسب إليه هذه الأناجيل وقد تم اختيارها بأغلبية الأصوات . فمن ذا الذى يستطيع أن يزعم بعد كل هذا أنها كتب مقدسة منزهة عن الخطأ ؟!

لا شك أن العقل المنصف الباحث عن الحق لا بد أن يرفع قدر " القرآن " كوثيقة فوق كل النصوص القديمة . لقد شك الباحثون بالحق أو بالباطل فى الشعر الجاهلى الذى سبق نزول القرآن وزعموا أنه بعضه أو كله منحول فقد قيل ـ على زعمهم ـ فى عصور تالية ونسبه قائلوه إلى ما قبل ظهور الإسلام ويشك المحققون فى نسبة الكثير جداً من الكتب والرسائل إلى مؤلفيها وتدور الكثير من الأبحاث حول هذه القضية الشائكة وتتناول نصوصاً تعود إلى العصور الوسطى بل الحديثة ولكن لم يشك باحث واحد فى نسبة القرآن إلى محمد " صلى الله عليه وسلم " بل لقد شك علماء الحديث الشريف فى نسبة الكثير جداً من الأقوال المنسوبة إلى النبى " صلى الله عليه وسلم " وقامت علوم الحديث الشريف أو السنة من أجل تحقيق نسبة الأقوال إلى محمد " صلى الله عليه وسلم " بينما كان القرآن فوق أى شبهة ولا يجرأ عاقل واحد على الشك فى أن النص الحالى المودع بين دفتى المصحف هو نفس الكلمات التى نطقها النبى " صلى الله عليه وسلم " باعتبارها

وحياً أنزل عليه من الله بين مكة والمدينة وغيرها من قرى الجزيرة العربية فى مطلع القرن السابع الميلادى . إن هذا التاريخ الفريد الذى ليس له مثيل ينبغى أن يلفت انتباه الباحث المنصف الراغب فى الوصول إلى الحقيقة .

ولقد قامت ولم تزل تقوم محاولات عديدة ومستمرة إلى يومنا هذا لتزييف النص القرآنى بحذف بعضه أو اجراء تعديلات مقصودة عليه فى طبعات مريبة تتم فى كافة أنحاء الكرة الأرضية إلا أنها بلطف آلهى عجيب يتم اكتشافها ويبقى النص القرآنى صحيحاً خالياً من غيره مما يؤكد صدقه إذ قال الله فيه ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ (١) .

هذا من ناحية السند أى نسبة " القرآن " إلى النبى الذى نطق به وهى قضية حسمها التاريخ إلى الأبد وصارت يقيناً علمياً مقطوعاً بصحتها .

أما من ناحية المتن أى محاكمة النص القرآنى نفسه طبقاً لمعطيات العلم فعلينا أولاً أن نؤكد أن " القرآن " الكريم هو الكتاب الدينى الوحيد الذى يحث الإنسان على العلم والبحث والتنقيب فى آفاق الكون المشهود .

إنه الكتاب الدينى الوحيد الذى دعا الإنسان إلى استعمال العقل لاكتشاف حقائق الكون وحثه على التفكر والتأمل فى المخلوقات بالسماوات والأرض وإلى التدبر من ناحية أخرى فى كلامه هو نفسه (القرآن) ليتأكد الإنسان من صحة أقوال القرآن واتفاقها مع وقائع الكون المشهود بإعتبار أن هذه الوقائع هى أفعال لله وأن (القرآن) هو كلامه إلى البشرية ولابد للإله الخالق القدير أن يتفق قوله مع فعله فهذا مقتضى العزة والحكمة والله هو العزيز الحكيم .

إن هذا التشجيع القوى للبحث والتنقيب والدعوة المستمرة للتفكر والتدبر لا شك أنهما يؤكدان ثقة " القرآن " فى نفسه حيث لا يخشى على " نصه " من تقدم العلم الإنسانى بل على النقيض من هذا فإنه يستحث الإنسان ليواصل

---

(١) سورة الحجر الآية ٩ .

صعوده فى مدارج العلم ليتأكد من صحة القرآن ويتيقن صدوره عن الله العليم الخبير .

﴿ قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون ﴾ (١) جعل التفكر مساوياً للإبصار والتفكر هو الإستدلال أى الصعود من المشهود إلى الغائب بإقامة الأدلة وهو عمل عقلى فمن لا يعمل عقله يعد " أعمى " فى نظر القرآن .

﴿ قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ﴾ (٢) هذه دعوة صريحة للبحث والتنقيب فى السموات والأرض .

﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى . إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾ (٣) .

لم يقل أفمن يؤمن بل قال " أفمن يعلم " وساوى بين الجهل والعمى إذ قال ﴿ كمن هو أعمى ﴾ فإن من لا يعلم يكون أعمى بنص القرآن

﴿ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ﴾ (٤) .

هذا خطاب يثير العقل ويحفزه للبحث عن كيفية نشأة الكون وظهور الإنسان .

﴿ وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾ (٥) .

---

(١) سورة الأنعام الآية ٥٠ . (٢) سورة يونس الآية ١٠١ . (٣) سورة الرعد الآية ١٩ .

(٤) سورة العنكبوت الآية ٢٠ الخلق المقصود هو خلقنا نحن البشر والآية تشير إلى أننا كنا فى صور غير آدمية لأننا مهما سرنا فى الأرض لن نرى عليها إلا النباتات والدواب ولنتأمل فى هذا السياق (ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلاً ما تشكرون . ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس لم يكن من الساجدين) الأعراف ٩،١٠ كان هناك خلق ثم جاء من بعده التصوير بصورة آدم الذى شهدنا فتنته كما توحى الآية .

(٥) سورة يوسف الآية ١٠٥ .

كل شئ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ (١) .

لقد عينت الآية أهداف تنزيل القرآن ..

أولاً : تأكيد صدق كتب الوحى السابقة ذلك لأن تلك الكتب قد دخلتها الأوهام والأكاذيب وخالطتها الخرافات بفعل الإنسان الذى لم يحفظ أمانة الله عنده فامتدت يده بالعبث فيها وكان هذا سبباً قوياً فى نفور العلماء أهل البحث والتحقيق من " الدين " لأن احترامهم لعقولهم كان يقضى بتخطئة تلك الكتب التى يقال أن " الله " قد أوحاها إلى أنبيائه ولا يمكن الإيمان بإله يخطئ ويقع فى الجهل فجاء القرآن ليصحح الأخطاء ويوضح أن التزييف الذى ارتكبه الإنسان هو الذى أدخل الأخطاء إلى كتب الوحى لأن الله منزه عن الخطأ .

ثانياً : توضيح كتاب العلم الالهى الذى عُبر عنه هنا بمحتواه يعنى " كل شئ " فإذا رجعنا إلى الآية السابعة والثلاثين من سورة يونس التى تقول ﴿ ما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ﴾ إذا تأملنا الآيتين معاً وصلنا إلى الفهم الصحيح وهو أن الكتاب الذى لا ريب فيه والذى نزل من رب العالمين هو الكتاب الذى احتوى على " كل شئ " وهو اللوح المحفوظ الذى انطبعت صورته فى السموات السبع مكــونة " الكتاب المبين " وقد جاء القرآن ليوضحه لنا ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ (٢) .

ثالثاً : هداية من يؤمن به فى كل الأمور التى تهمه من شئون الدنيا والآخرة ففيه الإجابة الشافية عن كل الأسئلة التى تحير قلب الإنسان ومن ثم فهو يأخذ بيد الإنسان ليسير مطمئناً على الصراط المستقيم ليصل إلى رحمة الله التى صدر عنها هذا القرآن الكريم .

---

(١) سورة يوسف الآية الأخيرة ١١١ .

(٢) سورة الكهف الآية ٢٩ .

(جـ) الصدق التام:

(ومن أصدق من الله حديثاً)

سورة النساء الآية ٨٧

الصدق هو النطق بالحق (١) .

والحق هنا هو ما يشهده القلب فإذا عبر الإنسان عن المكنون فى قلبه بلسانه أو بحاله كان صادقاً .

وعلينا أن نميز بين نمطين أو وجهين للصدق ونحن نتناول بالفحص " النصوص " الأدبية وهما الصدق الفنى الذى يتكشف لنا من التأمل فى " النص " والصدق الخلقى الذى يتضح لنا من امتحان سلوك المتكلم أو الكاتب .

ولكى نفهم المقصود بالصدق الفنى علينا أن ننتبه إلى أن الفن بصفة عامة والأدب بصفة خاصة يقوم على ادعاء من الفنان أو الأديب بأنه قد عرف الأشياء من خلال تجربته الذاتية الخاصة على نحو أعمق مما وصل إليه الآخرون الذين يخاطبهم بإبداعه فهو (الفنان أو الأديب) يدعى أنه اتصل بحقيقة الأشياء وعرف من جوانبها الغامضة أكثر مما ناله الآخرون وقد أملت عليه هذه المعرفة الذوقية التى ظفر بها من خوضه التجارب أملت عليه عمله الفنى سواء أكان قصيدة أو قصة أو لوحة أو تمثال أو مقطوعة موسيقية ومن هنا يتبين لنا أن " تميز " العمل الفنى واتصافه بملامح شخصية تفرقه عن أمثاله وتُعيِّن هويته هو معيار الصدق

(١) الحق هو شهادة الله . قال على لسان يوسف (يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقاً) أى مشهودة حاضرة بعد أن كانت غائبة أو ظاهرة بعد أن كانت خفية باطنة وهذه الآية تحدد لنا معنى (الحق) فهو الشئ المشهود .

ولما كانت الأشياء كلها واقعة فى العلم الآلهى ومن ثم فهى مشهودة من الله لذلك كان " الحق " هو العلم الالهى ومن ذلك العلم كلم الله أنبيائه ورسله فصار كلام الله الذى نطق به الأنبياء والرسل هو " الحق " ولذلك كان الحق إسماً ووصفاً للقرآن ولكل الكتب الالهية التى كلم الله بها أنبياءه . ولكن علم الله لم يخرج من الغيب إلا بواسطة النبى ولذلك كان الحق إسماً ووصفاً " لمحمد " صلى الله عليه وسلم باعتباره " روح الله " لأنه كان الوسيلة لظهور شهادة الله فهو صلى الله عليه وسلم " الحق " الذى جاءنا من ربنا .

ولما كان الله لا يشهد فى مخلوقاته إلا صفاته وأسمائه وأفعاله يعنى لا يشهد فى الحقيقة إلا نفسه إذ ليست الكائنات إلا صوراً لظهوره لذلك كان " الحق " أى المشهود أسماً من أسمائه الحسنى فهو الشاهد المشهود .

الفنى الذى يُمتحن بالمقارنة مع الأعمال الفنية " الأخرى " .

فلابد أن يأتى ممارس الفن بجديد فى الشكل أو المضمون لكى يستحق لفظ الفنان أو المبدع ولكى يوصف عمله بالإبداع ولهذا يكون الإقتباس المخفى أو بالأحرى السرقة هو المرادف الصحيح للكذب الذى يسلب العمل الفنى قدرته على التأثير فى نفس (قلب) المتلقى أى يفقده البلاغة .

والصدق الفنى " سر " أو " روح " ينتقل من قلب الكاتب المتكلم إلى قلب القارئ المستمع عبر " النص " . ولا ريب فى أن الروائع الأدبية التى احتفظت بها الإنسانية فى سجل الخلود هى تلك الأعمال التى أبدعها كاتبوها تحت وطأة شعور هائل بالصدق مع النفس وأن ثمة رسالة ينبغى إبلاغها للإنسانية إن لم يكن فى هذا الجيل فللأجيال القادمة .

إذا طبقنا هذا المعيار على " النص القرآنى " فسوف يذهلنا " التميز " الفريد الذى ظل القرآن يحتفظ به عبر القرون المتطاولة . لقد كان القرآن سبباً مباشراً فى انتاج كم هائل من الكتابات العربية منذ شهدت الدنيا إعادة تنزيله فى القرن السابع الميلادى وحتى يومنا هذا فى نهاية القرن العشرين وسوف يستمر التأثير القرآنى الفذ حتى تنتهى الدنيا وتقوم الساعة .

عشرات من العلوم والآلاف من القضايا البحثية وملايين من الكتب العربية ويبقى القرآن متفرداً بخصائصه تدركه العين أو الأذن بمجرد أن تقع عليه وسط ركام الكلمات البشرية .

لقد رفع القرآن اللغة العربية إلى مستوى لا تبلغه لغة أخرى وأحدث فيها من التأثير مالم يحدثه أى كتاب آخر فى أى لغة من اللغات التى نطق بها البشر لقد خرجت الحضارة الإسلامية كلها من آيات القرآن . كان باعث الحضارة وصانع تاريخها ألهم المفكرين ورسم الطريق للسالكين والعارفين وأرشد العلماء وأعطى القدوة للشخصيات العظيمة من رجال الحكم صناع التاريخ واحتفظ بتميزه الفذ وسط هذه البحار العميقة الصاخبة من كلام البشر .

اتُهم "محمد" صلى الله عليه وسلم بأنه قد اقتبس من أقوال أهل الكتاب فلم يكن القرآن فى هذا الاتهام إلاَّ إعادة صياغة للتوراة والأنجيل فى أسلوب عربى مبين يستمد جماله من عبقرية "محمد" الأدبية ولا يوجد من سند لهذا الإتهام سوى احتواء القرآن المجيد على قصص الأنبياء السابقين التى تشبه فى مجملها الظاهر ما ورد فى أسفار التوراة وكتب الأنبياء والأناجيل .

وليس هذا الإتهام جديداً بل هو قديم فقد ادعاه العرب "الجاهليون" عندما حيرهم القرآن بإسلوبه ومحتواه ورفضوا الإذعان لحقيقة تنزيله من الله وأخذهم الكبرياء

﴿ قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا الا اساطير الاولين ﴾(١)

﴿وقالوا أساطير الاولين إكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا﴾ (٢)

لم يأت أدعياء العلم فى العصر الحديث بجديد حين قالوا إن "محمداً" قد اقتبس القرآن من حكايات العهد القديم والجديد فهذا هو قول المشركين فى القرن السابع الميلادى حيث كانت ظلمات الجهل كموج البحر العميق تغرق العقول إنه إتهام بالإقتباس أو السرقة الفنية فهل هذا الإتهام صحيح أو يستند إلى أى دليل علمى ؟! لن نبحث الأمر من الناحية التاريخية رغم أهميتها فلن نقول مثلا إن "محمداً" لم يكن قبل الوحى يقرأ أويكتب فهو "أمى" ولن نتحدث عن الترجمة العربية للتوراة والأنجيل والتى لم تكن قدَ أنجزت بعد يعنى فى الزمن السابق على ظهور محمد "صلى الله عليه وسلم" فى التاريخ وهل كانت متداولة فى جزيرة العرب حيث يعيش شعب وثنى وأمى لن نتحدث عن كل هذا رغم أنها أدلة قاطعة على نفى الإقتباس ولكننا إتباعاً لمنهجنا فى هذا الكتاب سوف نعتمد على دراسة النص نفسه للوصول إلى حقيقته عبر قراءته . ينبغى أولا أن نفهم لماذا تحدث

---

(١) سورة الانفال الآية ٣١ (٢) سورة الفرقان الآية ٥

القرآن عن الأنبياء السابقين وأورد قصصهم فى آياتة ؟! .

إن "محمداً" صلى الله عليه وسلم هو آخر الأنبياء ظهوراً فى الدنيا والقرآن هوكلمة الله الأخيرة إلى البشرية .يقول موبخاً الكافرين ﴿فبأى حديث بعده يؤمنون﴾ يعنى إن لم يؤمنوا . بهذا الحديث الآلهى الذى هو آخر حديث من الله للبشرية فمتى أذن يؤمنون وقد اقتربت "الساعة" ولن يأتى من الله حديث آخر بعده .(١)

ومحمد إذن هو خاتم النبين كما صرحت سورة الآحزاب (٢) فهو آخرهم وقد جاء إلى الدنيا ليرثهم إذ كانوا بمثابة الوكلاء الذين ينوبون عنه فى إبلاغ كلمة الله عند غيابه فلما ظهر فى صورة النبى العربى صلى الله عليه وسلم إنتهت وظيفتهم وأغلقت دائرة النبوة فانتهت إلى من بدأت به وتكفل الله بحفظ وحيه فلا معنى لأى نبوة من بعده "صلى الله عليه وسلم" . وكما قلنا سابقاً فإن خيانة الإنسان للأمانة التى حملها من الله وهى "الوحى" الذى أوجب له الخلافة فلم يحفظها بل امتدت يده للعبث بها فكانت هذة الخيانة سبباً فى فتح باب الكفر على مصراعيه إذ يتعسرً على أصحاب العقول والعلماء أن يقتنعوا أن هذة الكتب المليئة بالخرافات والأخطاء العلمية الفادحة يمكن أن تكون وحياً من الله ولهذا كان لابد للنبى الذى جاء ليغلق باب النبوة معطيا البشرية كلمة الله الأخيرة كان لابد له أن يصحح الأخطاء التى أوقعها الإنسان فى الوحى الالهى بخيانتة للأمانة وأن يعيد الإعتبار للأنبياء بعد أن صاروا مضغة فى أفواه الساخرين من أدعياء الحكمة المتعالمين وخاض من يسمون أنفسهم "المثقفين" فى أعراضهم وسيرهم فى موجة الإلحاد التى بلغت أوجها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى ومطلع القرن العشرين وكان لابد "للقرآن" المجيد أن يصحح وأن ينبه إلى الأخطاء التى ارتكبت

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٨٥ وسورة المرسلات الآية ٥٠ .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٤٠ "ما كان محمدٌ أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبين وكان بكل شيء عليماً .

فى حق الوحى الالهى أمانة الله التى لم يحفظها الإنسان ومن هنا كان من المحتم أن يذكر القرآن قصص الأنبياء السابقين "بالحق" أى كما وقعت فى شهادة الله وليأخذ الإنسان منها العبرة ﴿لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب﴾ (١)

لقد أقام "محمد" صلى الله عليه وسلم دعوته على أساس أنه نبى مرسل من الله إلى البشر كما أرسل الله غيره من قبل وفى هذا إمتحان لأهل الكتاب من اليهود والنصارى لأن من يؤمن بالنبوة بصفة عامة كيف ينكرها على "محمد" صلى الله عليه وسلم وعلى أى أساس من العقل السليم يقيم رفضة العنيد ؟! .

لذا كان لابد أن ياتى ذكر الانبياء السابقين فى القرآن فهل ساير "القرآن" أهل الكتاب فى قصصهم ؟ هل أخذ عنهم موافقا لهم فى كل ما كتبوه ؟! إن إمتحان النصوص التى بين أيدينا يجيب بكل وضوح وبساطة وثقة "لا" .ففى كل المواضع التى اشترك فيها القرآن مع كتب العهد القديم أو الجديد تميز القرآن بوجهة نظر شخصية خاصة به وحده فضلاً عن أسلوبه البديع الذى لا يمكن أن يوضع شىء أمامه للمقارنة ولنتأمل الآن بعض مواضع الإتفاق لنرى هل يمكن وصم القرآن بالإقتباس من كلام أهل الكتاب ؟! .

جاءت قصة خلق السماوات والأرض فى بداية سفر التكوين مرتبة فى تسلسل زمنى يبدأ باليوم الأول الذى هو الأحد على زعمهم وينتهى باليوم السادس الذى هو الجمعة ثم استراح الله فى السبت - هكذا يصور كاتب السفر قصة خلق الكون فى أسبوع أو سبعة أيام من أيام البشر فى الدنيا بل يأتى بقصتين مختلفتين واحدة بعد الأخرى مما يؤكد أن هذا السفر لم يكتب فى وقت واحد بل لم يكتبه كاتب واحد بل اشترك فى تحريره عدد من الكتاب وفى أزمان مختلفة فكان هذا هو السبب فى مجىء روايتين وفى إمتلاء القصة بأمور لا يقبلها العقل ويحكم العلم بخطئها دون جدال أو مماحكة .

---

(١) سورة يوسف الآية ١١١ .

أما القرآن فإنه لا يأتى بالقصة هكذا مرة واحدة بل تتناثر أجزاء القصة بين السور على طول القرآن كله فى مناسبات مختلفة ولا يمكن إصطياد خطأ واحد بحكم "العلم" وليست الأيام الستة فى القرآن من أيام الأسبوع الذى يعرفه البشر فى الدنيا بل هى أحقاب زمنية كما يفهم من نص القرآن ونحن لا نلقى بالاً لأقوال المفسرين القدماء الذين سايروا كُتّاب سفر التكوين فى جهلهم . وفى قصة أدم أبى البشر يخبرنا القرآن بخلافته لله فى الأرض وبتعليمه له كل الأسماء وبسجود الملائكة له فى مشهد رائع يثير التأمل العميق ويلقى بنور باهر على مغزى وجود الإنسان ودوره الفذ فى بناء الكون يإعتباره الثمرة التى تسعى شجرة الخلق لإنتاجها كما قال سعيد النورسى كل ذلك لا أثر له فى سفر التكوين الذى يتحدث عن خلق السماوات والأرض كما لوكان مجرد إقامة بيت ريفى بسيط فى إحدى القرى الواقعة على شاطىء البحر !!(١) .

وفى قصة نوح عليه السلام لن نجد أثراً فى سفر التكوين للحوار العنيف الصاخب بين "الرسول" وقومه ولا لأسماء الأصنام التى كان يعبدها القوم ولا خيانة امرأة نوح ولا كفر إبنه وغرقه فى الطوفان والحوار الإنسانى المؤثر بين نوح وإبنه ومعاتبة نوح لربه .... لن نجد أثراً لكل هذا فى سفر التكوين الذى يسرد قصة نوح فى سياق رتيب ويمتلأ بتفاصيل تافهة مملة مثل أعمار الرجال فضلاً عن أنها تؤدى فى النهاية إلى خطيئة علمية فادحة إذ تحدد ظهور الإنسان على الأرض ببضعة آلاف قليلة من السنين وهو أمر يستحيل العلم الموثق أن يقبله بأى حال من الأحوال .

وفى قصة "إبراهيم" عليه الصلاة والسلام لن نجد أثراً لأهم الحقائق فى حياة هذة الشخصية الإنسانية الفذة لن نسمع عن الخلاف المحتدم الذى وقع بين إبراهيم الإبن وأبيه صانع التماثيل ولن نرى المشهد المروع حين يلقى يإبراهيم صلى الله عليه وسلم فى النار ولن نعاين تحول الجحيم إلى برد وسلام على إبراهيم ولن نفهم

---

(١) يمكن مراجعة التفاصيل فى كتاب الدكتور موريس بوكاى" دراسة الكتب المقدسة التوراة والإنجيل والقرآن فى ضوء العلم الحديث" وهو من منشورات دار المعارف المصرية .

سر الهجرة إلى جنوب الشام ولن نرى بناء الكعبة البيت الحرام يعنى لن نعرف شيئاً هاماً فى حياة أبى الأنبياء بل تطالعنا شخصية إنسان دنيوى يحب المال ولا يجد غضاضة فى قبول ثمن بيع امرأته للملك الذى انبهر بجمال المرأة الفاتنة "سارة" بل ويتصارع إبراهيم التوراتى مع ابن أخيه لوط على المرعى . إننا لن نرى أبداً فى صفحات سفر التكوين شخصاً جديراً بمقام أبى الأنبياء كما صوره القرآن فى أبلغ تصوير .

وفى قصة "يوسف" التى ذكرت فى القرآن دفعة واحدة بكامل تفاصيلها لن يخطىء القرآن مثلاً فيذكر ـ كما فعل كاتب سفر التكوين ـ أن القوافل التجارية بين جنوبى الشام ومصر كانت تستخدم (الحمير) فى السفر ولن يغرق القرآن كما غرقت التوراة فى تفاصيل دنيوية تافهة بل سنرى على مرآة سورة يوسف رواية إنسانية هائلة ليس لها مثيل كما بينا من قبل .

وفى قصة "موسى" الشخصية العظمى فى تاريخ بنى إسرائيل سنقرأ فى القرآن عن شخصية "قارون" الرجل الغنى الذى خان قومه وتحالف مع "فرعون" ضد أهله وسنقرأ عن "هامان" وزير "فرعون" وسنقرأ عن الرجل المؤمن من آل فرعون الذى كان يكتم إيمانه "بموسى" وسنقرأ عن "السامرى" الذى أغوى بنى إسرائيل ونجح فى إعادتهم إلى عبادة الأوثان بينما يدعى كاتب سفر "الخروج" أن "هارون" شقيق "موسى" هو الذى أضل قومه وصنع لهم العجل وسنقرأ فى القرآن عن إقتلاع جبل الطور وأخذ الميثاق تحت الجبل الذى ارتفع فوقهم كأنه ظُلة وسنقرأ عن نكوص بنى إسرائيل ونكثهم للعهد مع الله عندما جبنوا عن دخول "الأرض المقدسة" رعباً من سكانها . إننا فى القرآن نقرأ قصة جد مختلفة عن السرد الممل الذى يطالعنا على صفحات أسفار الخروج والأحبار (اللاويين) والتثنية والعدد والذى أمتلاء بتفاصيل بلغت الغاية فى الإسهاب المضجر وهى تتحدث عن بناء خيمة الإجتماع وملابس الكهنة وكيفية حياكتها وإرتدائها وأنواع الذبائح وتفاصيل الطقوس الغريبة التى لا شك فى أنها تشبه الطقوس السحرية التى تنتشر فى الشعوب الوثنية على صفحات كثيرة إبتلعت الأسفار

كلها فى جوفها المظلم الممتلىء الذى ضاعت فيه كلمة الله . وفى قصة "عيسى بن مريم" عليه الصلاة والسلام تتبدى لنا على مرآة القرآن شخصية أفضل إمرأة خلقها الله "مريم إبنة عمران" منذ حملت بها أمها إمرأة عمران ونذرتها للرحمن وحتى ولدت "كلمة من الله" بجوار نخلة تشبثت بها عندما جاءها المخاض فى تصوير فنى بالغ الروعة وتفصيل دقيق لا أثر له فى الاناجيل . لم يجامل القرآن "المسيحين" فى إدعاءتهم كما لم يجامل اليهود وتناثرت فى سور القران المكية والمدنية على السواء الآيات التىتوبخ عقيدة التثليث وأسطورة ولادة الإله وأكذوبة الصلب والفداء حيث أكد وحدانية الله وعبودية عيسى بن مريم ورفعه إلى السماء ونجاته من الصلب الذى دبروه له .

هكذا تميز "القرآن" برؤية ذاتية خاصة به قدمها فى ثقة ووضوح وتحدى بها خصومه وأعداءه دون أدنى خوف أو أى ميل للمداهنة حتى وصل الأمر إلى حد المباهلة(١) .

حيث طلب "القرآن" من "محمد" صلى الله عليه وسلم لكى ينهى الجدل حول "عيسى بن مريم . ويظهر "الحق" طلب منه أن يخرج أهله ونساءه وأبناءه ليقفوا معه كفريق واحد فى جانب على أن يأتى النصارى بأنفسهم ونساءهم وأبناءهم ليقفوا على الجانب الآخر ثم ليدعو كل فريق ربه لتنزل اللعنه على الكاذبين .

﴿فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾ (٢)

وبالفعل أخرج "محمد" صلى الله عليه وسلم أهله وتهيأ للمباهلة مقدما نفسه وأهل بيته قرباناً على مذبح "الحق" لكى يظهر لكن النصارى الذين أتوه للجدال

(١) يمكن مطالعة تفاصيل قصة" مريم " "والمسيح" إبنها عليه الصلاة والسلام فى رواية "كلمة من الله بقلم من المؤلف .

(٢) سورة آل عمران الآية ٦١

معه أحجموا عن الدخول فى المباهلة وقد نصحهم "محمد" صلى الله عليه وسلم فى لفتة رحمانية باهرة بالتراجع عن التحدى لمآ رأى الرعب فى قلوبهم يقطر من وجوههم الكسيفة لأنه يريد هدايتهم لاهلاكهم إنه حقاً يريد رحمة لاذبيحة فمن ذا الذى يجرؤ بعد كل هذا على أن يزعم أن "محمداً" صلى الله عليه وسلم قد إقتبس أقوال أهل الكتاب ليؤلف "القرآن" ؟! .

﴿إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم﴾ (١)

فانظر إلى ثقة القرآن فى نفسه وهو يؤكد صدقه بكل ألوان التاكيد فى إسلوب عربى مبين وتأمل !! .

إن القرآن يصدر فى كل آياته عن نظرة كلية تشمل كل الكائنات ترى فيها ظلالاً لتجلى الأسماء الآلهية وأثاراً لصفات "الذات" المقدسة فليس الكون فى رؤية القرآن إلا مرآة هائلة يتبدى "الله" على صفحتها المصقولة وكل الكائنات حتى التى تتوهم الحواس أنها ميتة مندمجة فى صلاة وتسبيح لخالقها الوحيد .﴿سبح لله ما فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾ (٢)

﴿تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح بحمده﴾ (٣)

وفى هذا الكون الشاسع الممتلأ بصور من الحياة تتجاوز الحصر فإن الإنسان هو الكائن الذى رفعه الله فوقها كلها فجعل له السيادة عليها وسخر كل شىء لخدمته .

هذة الرؤية القرآنية المتفردة ليس لها مثيل فى أى كتاب آخر دينى أو غير دينى وهى تفصح عن نفسها فى كل السور والآيات وعند كل المواقف ... فى التعقيب على حكم شرعى أو خلال سياق قصصى أو عند التعليق على حدث

---

(١) سورة آل عمران الآية ٦٢. (٢)الآية الأولى من سورة الحديد والحشر والصف .

(٣)سورة الإسراء الآية ٤٤ .

وفى التبشير أو التهديد فمن أين إقتبس "محمد" صلى الله عليه وسلم هذة النظرة التى تميز "القرآن" عن كل ما عداه من كلام ؟!

الجدير بالإنتباه حقا هو تميز "النص القرآنى" من بين مجموع الكلام الذى تركه " محمد صلى الله عليه وسلم" للبشرية .

لقد ترك لنا "محمد" صلى الله عليه وسلم ثلاثة أنماط من الكلام كل منها يعبر عن وجه لحقيقته التى تتعالى على الإدراك .

(١)"القرآن" كلام الله المعبر عن نبوة "محمد" صلى الله عليه وسلم" الذى تلقاه سماعاً إذ صار فى مقام الوحى " أذناً " تسمع كلام الله إلى البشرية .

﴿ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم ...﴾ (١)

(٢)"الحديث الشريف" وهو كلام الرسول بإعتباره مرسلاً من الله إلى الناس مأذونا لهُ بتعليمهم الشريعة والحكمة و " الحديث الشريف " يعد بمثابة تفسير "للقرآن" .... فهو يوضح ما غمض ويفصل ما أجمل ويجمع فى سياق واحد ما تناثر فى الآيات المتفرقة .

(٣)"الحديث القدسى" وهو كلام النبى بإعتباره "روح الله" الذى له وحده أن يتكلم بإسم الله فيقول فى الحديث القدسى" (عبدى لا تخف من سلطان أحد ما دام سلطانى قائم) أو يقول (يابن أدم خلقتك من مثل هذا ...) فالمتكلم هنا هو الله والناطق هو النبى بإعتباره " روحه " المعبر عنه .

هذة الأنماط الثلاثة ظاهرة فريدة وأستثناء لم يتكرر فى تاريخ النبوة فقد ترك لنا كل نبى نمطا واحداً من الوحى الآهى إليه . أعطانا "موسى" التوراة التى أوحاها الله وكتبها "موسى" على الألواح ثم فى "الصحف" التى كتبها بعد تكسيره الألواح وقد ضاعت تلك"التوراة" ولم يعد لها من أثر إلا الكتب التى سطرها البشر بأيديهم فيما بعد وظلوا يُغيرون فيها "وينقحونها" ويضبطون ألفاظها

(١) سورة برآة الآية ٦١

عبر القرون حتى وصلت إلى "الأسفار" التى بين أيدينا الآن فيما يسمى بالعهد القديم وهو خليط مركب ومُربك ومرتبك صنعته الآلاف من الأيدى البشرية تحت وطأة الظروف التاريخية والأهواء البشرية والأطماع الأرضية وما يعنينا الآن هو أن " موسى " عليه الصلاة والسلام لم يترك لنا إلا نصاً واحداً أو نوعاً واحداً من الكلام هو "ا لتوراة " التى تعبر عن نبوته ورسالته وقد ضاعت فى ظلمات التاريخ .

والأمر كذلك بالنسبة "لعيسى بن مريم" عليه الصلاة والسلام إذ لم يخلف لنا إلاّ الأنجيل (التبشير) الذى ضاع هو الأخر فى ظلمات العصور القديمة حيث الإضطهاد والفرار من المطاردات ولم يبق لنا إلاّ "أسفار" العهد الجديد المكتوبة باللغة اليونانية وهى لغة لم ينطق "ابن مريم" بحرف واحد منها بلسانه لأنه من الثابت المقطوع بصحته علمياً أنه عليه الصلاة والسلام كان يتكلم الآرامية وهى إحدى بنات اللغة العربية ... الأم التى ولدت كل "الساميات" إن لم تكن هى أم كل اللغات البشرية كما نعتقد.

شىء واحد فقط تركه "المسيح"لنا هو أنجيله (تبشيره) الذى لم يُعثر له على أثر . أما "محمد" صلى الله عليه وسلم فقد وهبنا ثلاثة شهود أحياء باقين على مر الزمان لا يموتون إثنان من إنشائه هما "الحديث الشريف" والحديث القدسى" والأول منن إنشاء الله وهو "القرآن" الذى تلقاه "محمد" صلى الله عليه وسلم بإعتباره نبياً أصواتاً مسموعة وتلاه علينا كما سمعه وكُتِبَ فى المصحف كما نطق به ولا يمنك عاقل أن يشك فى نسبته إليه والسؤال كيف كان يميز "محمد" صلى الله عليه وسلم نفسه بين "القرآن" الذى نطق به بلسانه وأملاه على كُتّاب الوحى وبين سائر كلامه الذى خاطب به قومه بإعتباره رسول من الله إلى البشر (الحديث الشريف) أو صدوراً عن مقام "روح الله" المتكلم بإسمه (الحديث القدسى).

لابد إذن أن "محمد" صلى الله عليه وسلم كان هو نفسه يتبين فى وضوح قاطع لكل شك أن "القرآن" يأتيه من خارج نفسه بإعتبار ه بشرٌ مخلوق لله ومن

ثم كان فى وسعه أن يميز بين كلامه وبين كلام الله ولا يقع فى الخلط بينهما ولم يسجل لنا التاريخ حادثة واحدة إزيلت فيها جملة أو حتى كلمة واحدة من "النص القرآنى " الذى كان يكتب على العظام والجلود ولحاء الشجر عندما تم إكتشاف أنها من كلام "محمد" صلى الله عليه وسلم وليست من القرآن بل كان الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم حريصاً أشد الحرص على ألاّ يقع هذا الخلط المحتمل جداً فأوصى ألا يُكْتَب شىء عنه إلاّ القرآن وحده ليضمن حفظ "القرآن" مصاناً عن الإختلاط بغيره حتى لو كان كلامه هو نفسه بإعتباره رسول الله وروحه المجيد

لقد ظل "محمد" صلى الله عليه وسلم يعامل القرآن بإعتباره حقيقة تتجاوز شخصه ولا يملك إزائها إلاّ الإذعان إليها . لقد أعلن فى وضوح قاطع أن "القرآن" هو كلام الله إليه وأنه لا يملك إنشاءه من تلقاء نفسه ولا تعديله ولا إجراء أى تغيير فيه ومن حسن حظ البشرية أن الله قد ضمن حفظ السيرة الشخصية "لمحمد" صلى الله عليه وسلم فى إستثناء فريد آخر لم يتكرر فى تاريخ البشرية كلها وبهذا الحفظ للسيرة النبوية يمكننا إختبار "صدق" القرآن بالمعيار الخلقى يعنى يمكننا التأكد من صدق "محمد" صلى الله عليه وسلم الشخصى باقتناعه هو نفسه بأن القرآن هو كلام الله وليس صادراً عن شخصه كما يتبدى لنا هذا الإقتناع بإمتحان السيرة النبوية التى نعرف دقائقها وأصغر تفاصيلها على نحو لم يتحقق لأى إنسان آخر على هذا الكوكب فإننا نكاد نعرف عن "محمد" الإنسان كل شىء صفاته الجسمية وطريقة مشيته وكلامه وجلوسه وقيامه وماذا يحب وماذا يكره وملابسه وطعامه وشرابه ونسائه وأين ولد وأين دفن وكل الأحداث الهامة بين ولادته وموته بل عدد الشعرات البيضاء التى كانت تخالط سواد شعر لحيته .

إننا فى الحقيقة يمكننا أن نعرف عنه أكثر مما نعرف عن الشخصيات المعاصرة لنا وكم من الأسرار قد رُفع عنها الستار فى حياة العديد من الشخصيات الهامة التى عاشت فى زمننا هذا تحت أضواء آلة الإعلام الرهيبة حتى صرنا نتشكك فى

قدرتنا على معرفة أى إنسان مهما تسلطت أضواء الإعلام على تفاصيل سيرته الشخصية ولكننا فى المقابل نستطيع أن نجزم بيقين علمى أننا نعرف عن "محمد" الإنسان الكثير جداً من المعلومات الصحيحة الموثقة بحيث تبدو لنا سيرته العطرة قمراً منيراً فى سماء ليلة صافية بل شمس مشرقة فى يوم رائع النهار وعلى سبيل المثال يمكننا أن نقول لا أحد يستطيع أن يعلم أين دُفن "موسى" بن عمران عليه الصلاة والسلام حتى أشد اليهود تمسكاً بالتوراة ولكننا بكل بساطة ووضوح نعلم أين يوجد الجثمان الشريف لمحمد صلى الله عليه وسلم وكيف دفن ومن الذين قاموا بإعداد الجسد للدفن . إن حفظ السيرة النبوية آية آلهية تستحق التأمل العميق .

وسنقوم الآن بجولة استكشافية سريعة فى السيرة النبوية لنتأكد من "صدق" محمد صلى الله عليه وسلم حين أعلن على الملآ أن القرآن هو كلام الله .

إن حرارة صدقه وهو يبلغ كلام الله كانت تنساب من القلب دون رسول أو ترجمان فلا يساور المستمع المنصت شك فى أن المتكلم يعتقد حقاً أن هذا هو كلام الله .

تبدأ السيرة النبوية المقطوع بصحتها بذهابه إلى "الجبال" (الأوتار الآلهية) حيث يعتزل الناس فى الغار ويختلى بنفسه عابداً الله بالتفكر والذكر طالباً الهداية للوصول إلى الحقيقة .

متى وقع هذا فى عمره المضىء ؟! .

على مشارف الأربعين وقد زالت من النفس سَوْرة الغرائز وجموح الأهواء التى قد تجتاح الشباب . لقد كان يحيى فى هدوء بعيداً عن "النادى" حيث يجلس وجهاء القوم يتسامرون ويتبادلون الأشعار والضحكات والنوادر وكنوس الخمر ولم يذهب إلى الحانات يطلب اللهو-حيث يشرب الجميع من كئوس اللذة المترعة ولم تعُرف عنه الرغبة فى أن يصبح شاعراً مرموقا تتناقل القوافل قصائده المتقنة ولم يُعَد نفسه ليصبح خطيباً مفوها يحفظ العرب كلماته وحكمه أو سيداً عظيما لا يُبْرَم أمر هام دون مشورته .

بل كان يتحاشى الزحام والصخب فى الأسواق يعيش حياة هانئة مع المرأة الجميلة الناضجة التى أختارته وربما وجد فيها حنان الأم التى فقدها منذ طفولته الباكرة .

من المؤكد أنه لم يكن يحلم بالشهرة والجاه فى قومه لأن المال والشعر كانا هما وسيلة فى ذلك المجتمع العربى الجاهلى لنيل الشهرة والجاه .

لقد عرفه قومه بالصادق الأمين إذ لم يضبطوه ولا مرة واحدة بكذبة ولو كانت صغيرة ولا خيانة ولو فى شىء قليل القيمة فصار بالنسبة إليهم المثل الأعلى للخلق الرفيع .

لم يكن يقلقه سوى "الحقيقة" الكامنة وراء الأشياء يريد الوصول إليها لذلك كان يستأذن من امرأته الحبيبة ويذهب إلى الجبل ليخلو إلى نفسه فى الغار الليالى ذوات العدد لعل العزلة تساعد على صفاء الذكر ووضوح الفكر.

من المؤكد أن هذا هوسلوك الأنبياء الذين وجدوا أنفسهم دوماً فى حاجة إلى الخروج والإعتزال فى أحضان الجبال وكذلك يفعل كل الرجال الباحثين عن الحقيقة أما الكذابون الباحثون عن الشهرة أو المال فمكانهم النوادى والأسواق وفى عصرنا يتوجهون إلى وسائل الإعلام .

لقد فاجأه "الوحى" أول مرة وهو فى عزلته بغار حراء على مقربة من مكة إذ رأى بغتة طائراً هائلاً يملأ جناحاه الأفق ينزل عليه ويضمه إليه وكأن الغار قد زال مع الجبل أو كأنه قد خرج منه دون أن يدرى وقام بالأفق ويأمره قائلاً ﴿إقراء﴾ (١) وهو الأمى العاجز عن القراءة والكتابة .

كاد يختنق وهو يشعر أن نفسه قد تُزْهَق من وطأة الضغط على قلبه . على هذة الحال المفزعة تلقى أول من الوحى وكان الأمر صدمة مروعة له خاف على نفسه الجنون ففر يجرى من الجبل لا يلوى شىء قاصداً بيته حيث امرأته الحبيبة يريد أن يقص عليها ماحدث . وصل وهو يلهث ورأسه المحموم يغلى وجسمه يرتجف

---

(١) سورة العلق الآية الأولى .

يقول "زملونى زملونى" دثرونى دثرونى (١) فلفوه بالأغطية ثم طلب منهم أن يصبوا عليه الماء فسكبوا عليه ما استطاعوا أن يأتوا به وظل على هذه الحال ساعة من الزمن ثم هدأ وأخذته سنة من النوم . ولما أفاق قص على "خديجة" الحكيمة ما وقع له فطمأنته على نفسه وقالت له إن الله لن يخذله أبداً لأنه يكرم الضيف ويغيث الملهوف ويعين على نوائب الدهر أى يساعد الذين فى حاجة إلى المساعدة.

الجدير بالملاحظة هنا هو أن "الوحى" كان مفاجأة مفزعة له شعر فى أعماق قلبه أنها ستحدث إضطراباً هائلاً فى حياته المستقرة ولم يكن فى "الحادث" أدنى درجة من الإنتظار أو التوقع أو الإستعداد إلى هذه المفاجأة الكاملة أشار القرآن إذ قال له ﴿وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلاَّ رحمة من ربك﴾ (٢)

ما كان يخطر على قلبك أبداً أن يكلمك الله وينزل عليك وحيه وما وقع هذا إلاَّ بدافع من رحمة ربك بك وبالخلائق كلها من بعدك .

وقال له ﴿وكذلك أو حينا إليك روحاً من أمرنا ماكنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من شاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم﴾ (٣) .

لقد استندت المرأة الصالحة (رضى الله عنها) فى بث السكينة فى قلب زوجها على خلقه الرفيع وإتصافه بسجايا كريمة توجب له رحمة الله ورعايته ونصره فهل يمكن أن يكون الصادق الأمين الذى اتفق الجميع على خلقه العظيم هل يمكن أن يكون كاذباً ؟!

ولكن الرجل صلى الله عليه وسلم لم يكتف بهذا بل كان يطلب التقين لنفسه

---

(١) لقد كشف لقلبه دفعة واحدة وعلى حين بغتة حقيقة نفسه فأذهله ما رأى ولم يكن عقله (فزاده) قد تهيأ بعد لتلقى الحقيقة فأصابه الإضطراب وأراد أن يعود إلى الإستتار الذى ألفه فصرخ وهو يهرول إلى بيته زملونى ...زملونى ...دثرونى ...دثرونى يريد أن يعود إلى غطاءه ولكن هيهات وقد أسفر صبح الكشف وابى الله إلا أن يتم نوره .

(٢) سورة القصص الآية ٨٦

(٣) سورة الشورى الآية ٥٢

فذهب مع أمراته إلى الشيخ ورقة بن نوفل قريبها المعروف بسعة إطلاعه على أقوال أهل الكتاب ليعلم رأيه فيما حدث فأخبره الشيخ أن ما جاء ه هو الوحى الذى ينزل على الأنبياء وأنه يشبه "الناموس" الذى نزل على "موسى" بن عمران ونصحه بأن يستعد للإبتلاء العظيم ، إذ سيتعرض للإيذاء والإضطهاد من قومه . من المؤكد أن "محمد" صلى الله عليه وسلم قد أطمأن على نفسه بعد حديث "ورقة" ولكن من المؤكد أيضاً أن الخوف قد بدأ يتسلل إلى قلبه من المستقبل الغامض الذى يبدو أنه يحمل فى جوفه المعتم الكثير من المتاعب .

وبالفعل فقد بدأت المتاعب منذ اللحظة الأولى التى تلقى فيها الأمر يابلاغ الرسالة إذ قال له . ﴿وأنذرعشيرتك الأقربين﴾ (١)

فوقف على جبل الصفا فى صباح يوم مشرق وصرخ بأعلى صوته كأنه مسّعر حرب (يا صباحاه يا صباحاه) نداء تعرفه قريش يطلقه كل من يريد إبلاغ القوم بأمر هام فاجتمعوا حوله ووقفوا منصتين إلى ما سيقول فاراد أن يأخذ منهم الإقرار بصدقه وأمانته فقال لهم : لو أخبرتكم أن بسفح هذا الجبل جيش أكنتم مصدقى؟! ...قالوا : ما جربنا عليك كذباً قط ...قال : فإنى رسول الله إليكم بين يدى عذاب شديد . فانبرى أبو لهب يسبه مستهزئاً به قائلاً تبا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا .

لا يبدأ الزعيم السياسى الباحث عن جمع الأنصار لا يبدأ خطابه بالإنذار والوعيد بل نراه دوماً وفى كل العصور يبشر شعبه بالسعادة الغامرة التى تهبط عليهم بمجرد أن يرفعوه إلى كرسى الحكم ويسلموا إليه قيادهم . هذا هو سلوك القائد السياسى أما أن يبدأ "محمد" صلى الله عليه وسلم خطابه بالتخويف من عذاب شديد فهذا دليل إضافى على أنه حقاً نبى لأنه كذلك فعل الأنبياء كلهم لقد وبخوا أقوامهم على خطاياهم وأنذروهم عذاب الله الشديد .

وقد رد القرآن على سباب أبى لهب بسورة المسد ﴿تبت يدا ابى لهب

(٣) سورة الشعراء الآية ٢١٤

وتب ، ماأغنى عنه ما له وما كسب ، سيصلى ناراً ذات لهب وامرأته حمالة الحطب فى جيدها حبل من مسد﴾ .

وعندما فعل هذا فإنه قد قطع أمل أبى لهب فى الإيمان وحدد مصيره الأبدى فى جهنم منذ اللحظة الأولى من الرسالة وضمن عداءه حتى النهاية . الشىء الجوهرى هنا هو أنه لم يخش انقلاب حال أبى لهب وإعلانه الإسلام الأمر الذى فعله الكثيرون من صناديد قريش ولو فعل أبو لهب هذا لأوقع "محمدا" فى ورطة كبرى إذ كان سيضطر لا محالة الى حذف هذة السورة البديعة من القرآن لتتفق مع توبة أبى لهب ولكن القرآن كان واثقاً من نفسه متأكداً من علمه فعَّين مصيره الأبدى منذ اللحظة الأولى ولم يخش الإضطرار الى تغيير نصه لأنه يصدر عمن أحاط بكل شىء علماً ﴿الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً﴾ (١)

وبدأ زمن الإضطهاد حيث أصبح كل يوم يشهد جلد المؤمنين بالسياط على رمال الصحراء الحارقة والحبس والقتل والتسخير والسباب ووضعت الأشواك فى طريق النبى والقاذورات على ظهره وهو ساجد بالبيت الحرام ولكن لم يغير كل هذا من إيمانه شيئاً .وفى أتون هذة الفتنة المشتعلة انقطع "الوحى" على حين فجأة ولم يعد "محمد" يتلقى كلاماً جديداً وأصبح مثار سخرية القوم وموضع إستهزائهم الشامت(لقد هجرك ربك يا محمد وتخلت عنك الشياطين التى كانت تنزل عليك) ولم يستطع "محمد" صلى الله عليه وسلم أن يرد عليهم . لو كان شاعراً حقاً لأستطاع أن يبدع قصائد مطولة يفخر بها بنفسه ويعدد مناقبه ويهجو فيها خصومه ولكنه حقاً ليس شاعراً فلزم الصمت ولو كان بوسعه أن يؤلف "القرآن" لأخرج من قلبه الغنى بالمعرفة سورة قصيرة أو بعض آيات ولكنه لم يفعل شيناً وبقى عاجزاً فترة إمتدت على الأقل بضعة أشهر يتلقى فيها طعنات التكذيب والإستهزاء ولا يدفع عن نفسه . كانت هذة "الفترة" التى فتر فيها

---

(١) سورة الكهف الآية الأولى

الوحى أى توقف وأنقطع عن قلبه ضرورية لإستكمال أيمانه بنفسه إذ عاين فيها تجاوز القرآن لشخصه وعدم خضوع الوحى لرغباته حينئذ ﴿آمن الرسول بما أُنزل إليه من ربه ﴾ (١) إذ أدرك بالتجربة أن القرآن لا يصدر عن شخصه بل يأتى إليه من ربه ومن ثم فهو ينزل بمشيئة الله وحده وليس بميل أو هوى قلبه لقد ظل "محمد" صلى الله عليه وسلم حيناً من الدهر يشك فى نفسه ويطلب اليقين حتى ملأ قلبه قال له ﴿الحق من ربك فلا تكونن من الممترين﴾ (٢) يعنى القرآن هو الحق الذى جاء اليك من ربك فلا يجب ان تكون من الذين يرتابون فيه ويتجادلون .

أو أنت الحق الذى نزل من ربك فجدير بك أن تتنزه عن الشك والجدال . وقال له ﴿فلا تك فى مرية منه ، إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ .(٣)

ونكتفى فى هذا المقام بقوله : ﴿فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسئل الذين يقرأون الكتاب من قبلك ، لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ﴾ (٤)

فقال " الرسول " لمّا اكتمل إيمانه (لاأشك ولا أسأل) . لقد عانى "الرسول" صلى الله عليه وسلم كإنسان من الشك وقد تكّون إيمانه يوماً بعد يوم حتى تحول الى يقين ملأ قلبه . إذن فالقرآن حقيقة تتجاوز "محمد" الإنسان وقد فرضت علية فرضاً تأمل فى قوله ﴿إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ، قل ربى أعلم من جاء بالهدى من هو فى ضلال مبين﴾ (٥)

---

(١) سورة البقرة . الآية ٢٨٥ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٤٧ ويقول فى سورة آل عمران الآية ٦٠ (الحق من ربك فلا تكن من الممترين) .

(٣) سورة هود الآية ١٧.

(٤) سورة يونس الآية ٩٤ .

(٥) سورة القصص الآية ٨٥ .

وهذا الفرض يتضح من ملاحظة حال "محمد" صلى الله عليه وسلم حين يأتيه الوحى . إنها المرة الأولى والأخيرة فى التاريخ البشرى التى يتيح الله فيها للبشر أن يروا "النبى" عند تلقى الوحى أثناء تنزله عليه .

لقد ذهب "موسى" إلى الجبل فى ميقات ربه وتلقى "التوراة" دون أن يراه أحد من بنى إسرائيل ودخل "عيسى" الى جبل الزيتون وتلقى هنال الإنجيل(التبشير) ولم يره أحدٌ من الشعب اليهودى بالضبط كما لم يشهد أحدٌ من العرب "محمداً" وهو يستمع الى الوحى لأول مرة فى غار حراء ولكن بعد ذلك صار الوحى ينزل على "محمد" صلى الله عليه وسلم علانية أمام الناس فلقد جاءه الوحى وهو جالس مع أصحابه وأحياناً وهو يقود المعارك يلتف حوله كبار رجاله ومرات عديدة أثناء سفره راكباً ناقته ووصف لنا هؤلاء الشهود ما رواه فقالوا إنهم كانوا يسمعون مثل دوى النحل عند رأسه صلى الله عليه وسلم وكانوا يرون جسمه وهو يرتجف ويتقلص إن أحدهم كان يجلس ذات مرة بجوار النبى فلما نزل الوحى عليه صلى الله عليه وسلم تصلبت فخذ النبى وضغطت على فخد الصحابى حتى أوشكت أن تكسرها وكانوا يشهدون غياب وعيه بهم ويعاينون العرق الغزير وهو ينضح من وجهه المشرق المتألق فى اليوم شديد البرد وقد بدا على ملامحه مايعانيه من الألم والمشقة وكان يشكو أحياناً من الصداع الشديد الذى يعتريه عند قدوم الوحى الذى يُعْلِن له عن اقترابه بصوت شديد يقرع سمعه يشبه صلصلة الجرس وإذا جاءه الوحى وهو راكب ناقته تهاوت وسقطت على الأرض بلا حراك فهل كانت الناقة البريئة تشارك "محمداً" فى تأليف القرآن وتساعده على إتقان الكذب؟!!

سيقول بعض أدعياء الثقافة من المتعالمين أن هذه الحال تشبه حال المصابين بالصرع أثناء نزول نوبة المرض عليهم ولكن لم يحدث أبداً أن خرج المصروع من النوبة ليتلو علينا مثل هذا الحديث البديع الذى يفيض بالعلم والجمال وينبئنا بأخبار الماضى السحيق الموغل فى القدم بنفس الوضوح الذى يتحدث به عن أحداث لم تشهدها الدنيا بعد !!

ولقد اختلف رأى "الرسول" الإنسان فى مواضع معلومة مع حكم القرآن

وأُعلن هذا الإختلاف على الملأ فى سور القرآن نفسه ولم يملك " الرسول " صلى الله عليه وسلم إلا أن يذعن لحكم الله الوارد فى القرآن ويتخلى عن رأيهرغم ما قد يسببه هذا التنازل من حرج شديد له بين القوم خاصة حديثى العهد بالإسلام والذين فى قلوبهم مرض والمنافقين ولكنه لم يملك إلا أن يرضخ طواعية لحكم القرآن مفصحاً بهذا عن تجاوز القرآن وعلو قدره فوق شخصه الإنسانى العظيم وتقبل فى كل مرة عتاب الله له النازل فى القر آن دون أن يملك أدنى إرادة أو قدرة على تغيير النص القرآنى الذى سيظل يتلى ويدرس فى الدنيا حتى تقوم الساعة حاملاً هذا العتاب الشديد من الله لرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم .

عندما جاءه عبد الله ابن أم مكتوم وهو رجل كف بصره عاجز عن الرؤية وكان الرسول صلى الله عليه وسلم ساعتها يتحدث مع أحد وجهاء قريش يطمع فى هدايته ودخوله فى الإسلام فعبس وجه الرسو ل صلى الله عليه وسلم وأعرض عن الأعمى لانشغاله بأمر الوجيه القريشى ورغم أن الأعمى لم ير وجه "محمد" عابساً إلاَّ أن الله رأى وأنزل يعاتب رسوله ويلومه على الملأ ويعلمه صلى الله عليه وسلم قائلاً ﴿عبس وتولى أن جاءه الأعمى .....﴾ (١) فما كان من " النبى " صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إلاَّ المبالغة فى إكرام ابن أم مكتوم والإحتفاء به كأنه يعتذر له عن العبوس الذى لم يره .

وعندما جاءته "خولة بنت ثعلبة" تشتكى زوجها الذى ظَاهَر منها أى قال لها أنت حرام على كظهر أمى وهى صيغة جاهلية من صيغ الطلاق وأعتبرها الرسول الإنسان ياجتهاده صيغة طلاق مقبولة فحكم بتطليق المرأة بينما المرأة نفسها ترفض هذا الحكم وتعده قسوة لا تليق برحمة الله إذ هى فى أمس الحاجة الى رعاية زوجها والذى بدوره فى أمس الحاجة إلى رعايتها فهو فقير معدم لا يكاد يملك قوت يومه والإثنان الرجل والمرأة شيخان يحتاج كل منهما إلى الآخر . إلاَّ أن "الرسول" الحاكم الإنسان لم يملك فى حدود إجتهاده إلاَّ أن يحكم بالتطليق رغم إحتجاج

---

(١) سورة عبس الآيات ١-١٠

المرأة وإلحاحها . وهنا نزل القرآن مخالفاً حكم الرسول الإنسان صلى الله عليه وسلم إذ حكم ببطلان الطلاق بإعتباره أن صيغة الظهار غير مقبولة شرعاً بل هى باطل لا يقام عليه حكم شرعى .

ما يهمنا الآن هو أن النبى صلى الله عليه وسلم الذى نزل عليه القرآن لم يملك إلا أن يرضخ لحكم القرآن ويتنازل عن إجتهاد الرسول الإنسان .

ولا شك أن أشد عتاب هو ما جاء فى سورة الأحزاب إذ قال له يلومه على الملأ وإلى يوم القيامه ﴿وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه﴾ (١) فلو كان " محمد " صلى الله عليه وسلم يؤلف القرآن أو يملك تغييره لأسرع يمحو هذه الجملة من الآية على الأقل لأنها تحط من قدره فى نظر العوام والغوغاء وقد تؤثر على إنتشار الرسالة وإحترامها فى نظر الناس إلاّ أنه لم يملك أن يفعل ﴿وإذا تتلى عليهم أياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقائنا إئت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا مايوحى إلىّ إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم﴾ (٢)

وهدده تهديداً مرعباً إذ أنذر الرسول قائلا ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾ (٣)

أعتقد أن الصدق التام للقرآن لم يعد الآن فى حاجة إلى مزيد من البيان ....وبعد فلا نملك إلا أن نقول .

﴿ هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا انما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب﴾

وصدق الله العظيم

---

(١) سورة الاحزاب الآية ٣٧ .
(٢) سورة يونس الآية ١٥ .
(٣) سورة الحاقة الآيات ٤٤ ـ ٤٧

﴿ نبذة للتعريف بالمؤلف ﴾

الإسم : توحيد عبد الفتاح الزهيرى

من مواليد ١٦ فبراير عام ١٩٥٣ وحاصل على بكالوريوس الطب والجراحة.

يعمل حالياً طبيباً بالهيئة العامة للتأمين الصحى .

أصدر عام ١٩٩٣ كتاب ﴿كلمة من الله﴾ وهو رواية تاريخية طويلة تقع فى ٦٤٠ صفحة تتناول حياة المسيح صلى الله عليه وسلم والأنجيل برؤية قرآنية وفى سياق عرض شامل للعصر الذى ولد وعاش عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام .

له طائفة من المقاولات تتناول القضايا الثقافية من وجهة نظر إسلامية .

العنوان : جمهورية مصر العربية ـ محافظة القليوبية طوخ أمام نقطة المرور منزل رقم ١٩ بجوار بنك مصر . تليفون ٠١٣/٤٦١٩٢٦ .

رقم الايداع
٩٧ / ٣٦٥٦
الترقيم الدولى
I. S. B. N.
977-5566-10-X